أحمد عبد الغفور عطار

الشيعة

خلاصة كل ضروب الكفر والموبقات والشرور والعاهات

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

إلى حضرة صاحب السمو الملكي الأمير المعظم
عبد المحسن بن عبد العزيز أحد قادة الإسلام
الذي يجاهدون الشيوعية مع اخوته الكرام

المؤلف

مكة المكرمة

[signature]

٢٦/٧/١٤٠٧هـ

احمد عبد الغفور عطار

الشيوعيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ
وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ● ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا
بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ●
* أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ
مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ●

تمهيد

كان القياصرة طامعين في استعمار الأقطار الإسلامية ، واحتلوا منها ما يقع في حدود بلادهم مثل طاشكند وبلاد الفرغز القوقاز وتاجكستان وكل ما كان يعرف ببلدان ما وراء النهر مثل بخارى .

وقد دافع المسلمون عن أوطانهم دفاعاً مجيداً رائعاً . ولكن مسلمي كل قطر لم يكونوا في قوة روسيا ، وكان بعض الحكام المسلمين على خلاف مع بعضهم . وأدى ذلك إلى هزيمتهم ووقوع أقطارهم في قبضة الحكم القيصري الظالم .

وكان القياصرة يحلمون في الوصول إلى البحار الدافئة وفي الخليج العربي ، ولكن قوة إنجلترا كانت تحول دون تحقيق حلم القياصرة ، كما أن وجود دولة الخلافة كان من الأسباب التي حالت دون القياصرة وأطماعهم .

ثم جاءت الشيوعية سنة ١٩١٧ م وسيطرت على روسيا وعلى بعض الأقطار الإسلامية التي كانت تحت الحكم القيصري ، ومع أن لينين أعلن للمسلمين أنه سيمنحهم الحرية إلا أنه كان يكذب ويخدع ، وقاوم المسلمون الحكم الشيوعي الذي وجه إلى المسلمين أعنف الضربات حتى غادر الملايين أوطانهم فراراً بدينهم وحرياتهم ، ولجأوا إلى الأقطار الإسلامية كالقارة الهندية وأفغانستان وإيران وبعض بلدان العالم العربي .

ولجأ عشرات الآلاف منهم إلى مكة المكرمة - حرسها الله - وإلى الطائف وإلى المدينة المنورة - زادها الله شرفاً وتعظيماً ، وازدحم حي المسفلة بآلاف اللاجئين من بخارى وطاشكند والقوقاز وأذربيجان وداغستان وتركمانستان وأوزبكستان وتادجكستان وكازخستان .

وكان جيراننا من هؤلاء اللاجئين ، يزورون أبي - رحمه الله - وزاملني بعض أبنائهم في المدارس وفي حلقات العلم بالمسجد الحرام .

ولم يقف طمع الشيوعية عند الأقطار الإسلامية التي التهمتها ، بل تطلعت إلى الأقطار الإسلامية الأخرى ، وفي كل بلد دخلته الشيوعية كانت شديدة الوطأة على المسلمين ، فعندما تحول الحكم في أثيوبيا (الحبشة) إلى الشيوعية ضربت المسلمين في المقاتل وضربت مسلمي أرتيريا ، وكذلك فعلت في فيتنام الجنوبية ، وفي تركستان التي تقاسمتها الشيوعية الروسية والشيوعية الصينية .

وعلى مر الأيام زاد طمع الشيوعية في العالم العربي عندما فتح جمال عبد الناصر أبواب العالم العربي للشيوعية التي دخلته دخول الصديق .

واختدع العالم العربي من دعاية عبد الناصر للشيوعية التي انتهزت الفرصة فأيدت أنصارها وعبيدها المسخرين لها تأييداً لا حدّ له ، وأقامت أحزاباً وهيئات أغدقت عليها الأموال لتنشر سيطرتها .

وللشيوعية نشاط في كل أقطار العروبة والإسلام ، وفي إفريقيا ودول أمريكا اللاتينية .

وأما أقطار الإسلام فهي أكثر أقطار الأرض تعرضاً لضرب الشيوعية ، ولم تكتف بالأقطار التي التهمتها ، هذه الأقطار التي يقع معظمها في جنوب روسيا وفي شمال تركيا وإيران وأفغانستان .

وجاء « دور » أفغانستان[1] فالتهمتها في بضعة الشهور الماضية من سنتنا

(١) تبلغ مساحتها (٦٥٧,٥٤٦) كم٢ وعدد سكانها ١٥ مليون مسلم

هذه سنة ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م) وأخذت تثبِّت أقدامها في إصرار وعناد ، وتضرب المسلمين الذين قاوموا الزحف الشيوعي ضرباً مدمراً ، فقد استعملت الشيوعية في حرب الإبادة التي أعلنتها على المسلمين قنابل « النابالم » والغازات الخانقة المحرقة دولياً ؛ ولم تبال استنكار العالم واحتجاجه ، ومتى كانت الشيوعية تبالي القيم والإنسانية .

وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد وقفت في وجه الاتحاد السوفييتي وأبدت استعدادها لمساعدة باكستان[1] فإن الموقف الأمريكي سينتهي إلى ما انتهى إليه موقفها في فيتنام الجنوبية ، وتترك أفغانستان لروسيا ، وقد تتقاسم معها المنطقة ضماناً لمصالحها في الشرق الأوسط .

وإن روسيا لم تغز أفغانستان إلا تمهيداً للانتقال منها إلى البحار الدافئة والخليج العربي ودجلة والفرات ، وقد أعدت العدة بإقامة أنظمة حكم شيوعية في بعض بلدان الجزيرة العربية وبلدان افريقيا المجاورة لجزيرة العرب ولأقطار عربية .

والخطر الشيوعي محقق لا مفر منه ، وهذا يحتم على العالم الإسلامي وفيه العالم العربي أن يتحد ويستعد ، ويترك ما بين أقطاره من خلاف حتى لا تكون فريسة الشيوعية المصممة على إخضاع العالم لسيطرتها .

وإن الحرب العظمى الثانية التي انتهت بهزيمة المحور (ألمانيا وإيطاليا واليابان) لم تكن أي دولة من دول الحلفاء (أمريكا ، وبريطانيا ، وفرنسا) رابحة الحرب ، بل الدولة الوحيدة التي ربحتها هي روسيا الشيوعية ، فخسرت بريطانيا وفرنسا وكل دول الاستعمار الغربي مستعمراتها في العالم ، وكسبت روسيا مستعمرات قوية مثل بولندا وألمانيا الشرقية وفنلندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا كما دخل النظام الشيوعي يوغوسلافيا ورومانيا وألبانيا ، وصارت الصين كلها شيوعية وكذلك فيتنام وكوريا الشمالية .

---

(١) هذا ما أعلنته أمريكا والذي نعتقده أنها لن تقدم لباكستان المساعدة التي تجعل منها دولة قوية .

لم تكسب أمريكا شيئاً من الحرب وكذلك حلفاؤها لم يكسبوا بل خسروا مستعمراتهم وأمجادهم ، والوحيد الذي كسب الحرب هو الاتحاد السوفييتي الذي ما زالت غنائمه تزداد على مر السنين .

وعدد المسلمين في الاتحاد السوفييتي مختلف بين الباحثين ، فالكاتب السعودي الأستاذ محمد علي مغربي أحد الباحثين الذين درسوا الشيوعية ، قد أصدر كتاباً تحت عنوان « لعنة هذا الزمان » وصدر سنة ١٣٨٧هـ كشف فيه حقيقة الشيوعية ، وحياة المسلمين في الاتحاد السوفييتي وذكر أن عدد المسلمين فيه ثلاثون مليون مسلم .

وهو رقم متواضع جداً ، والحقيقة أن عدد المسلمين يزيد على ستين مليون مسلم .

ونشر ملف جريدة «النهار» التي تصدر في باريس بالعدد الصادر في يوم الاثنين ١٢ آب (أغسطس) ١٩٧٩ دراسة دقيقة مفصلة ذكر أن عدد المسلمين أربعون مليون مسلم .

وجاء في ملف النهار هذه العناوين البارزة التي توجز بعض الحقائق عن المسلمين في الاتحاد السوفييتي ، وهذه العناوين هي :

- ٤٠ مليوناً جذورهم تركية ، أعراقهم متعددة ، لغاتهم متنوعة .
- المسلمون في الاتحاد السوفييتي : ممنوعون عن الدين . . . مدعوون إلى المجتمع .
- قمعهم القياصرة وتساهل لينين معهم ، وعرفوا الحالين في عهدي ستالين وخروتشيف .
- ٣٠٠ جامع ومدرستان دينيتان و٢٠ طالباً و٤٠ حاجاً ولا محاكم شرعية

وفي جريدة « المدينة » بعددها الصادر في يوم الأحد ٢/ ٤/ ١٤٠٠ هـ (١٧/ ٢/ ١٩٨٠م.) بحث عن الكاتبة الفرنسية إيلين كادياردييفوس وكتابها « الامبراطورية تنفجر » جاء فيه أن سكان الاتحاد السوفييتي ٢٦٢ مليوناً . منهم

٥٠ مليون مسلم .

وترى أن عدد المسلمين سيصل في سنة ٢٠٠٠ م إلى مئة مليون مسلم ، وسيكونون عندئذ ثلث سكان الاتحاد ، وهكذا سيكون في مقدور المسلمين تكوين مجموعة من بداية بحر قزوين .

وتذكر الكاتبة الفرنسية : أن ما يسمى أقلية إسلامية سوف يتلاشى ليصبح أكثرية .

وتقول الكاتبة الفرنسية :

« ويصر السوفييت أن عدد المسلمين لا يتجاوز الخمسين مليوناً ، وأن عدد المساجد لا يتعدى الثلاثمئة ، بينما كان عدد المساجد في سنة ١٨٩٧ هـ يتجاوز الخمسة والعشرين ألف مسجد ، ومع أن طاشكند التي تعد عاصمة المسلمين فان عدد المساجد بها لا يتجاوز اثنين ، بل الأصح لا يتجاوز مسجداً واحداً .

وفي جريدة « عكاظ » . بأحد أعدادها الصادرة في شهر ربيع الثاني ، ١٤٠٠ هـ أن عدد المساجد في سنة ١٩١٧م. كان ٢٤ ٠٠٠ مسجدا وفي سنة ١٩٦٠م. بلغ عددها ١٢٠٠ مسجد.

ومنذ بضع سنوات كنت في عاصمة دولة عربية ، وكنت أنزل بفندق ازدحمت طبقاته كلها بخبراء سوفييت ، وكان معي قريب لي . وكنا نصلي جماعة الفجر وغير الفجر ، وكان جارنا أحدهم ويسمع قراءتنا ، وذات مرة خلا الفندق منهم إلا من جارنا ودخل غرفتنا ، وسألته عن دينه فقال : إنه ملحد ولا يؤمن بدين ، وإن كان أبواه مسلمين ونشأ في بيئة مسلمة ، وقال : أنا لا أؤمن بوجود الله . وسألته عن دراسته فأجاب : إنه يحمل الدكتوراة في أحد العلوم ، ولما كان يحسن العربية اختاروه مترجماً لبعثة الخبراء .

وبعد حوار بيني وبينه عن الله ووجوده ، وبعد أن عرف أن لي كتباً في محاربة الشيوعية أفصح لي عن حقيقته ؛ قال : إنه كمؤمني آل فرعون يكتم إيمانه ، وذكر لي أن عدد المسلمين في كل بلدانهم يزداد ، ومع أن الشيوعية تقاوم الإسلام ، وتمنع تعليمه فان أكثر المسلمين الموجودين في الاتحاد السوفييتي ولدوا

بعد قيام الثورة والدولة سنة ١٩١٧ م ومع ذلك يولد المسلم مسلماً ويبقى على إسلامه ، فأنا ولدت في أواخر عهد ستالين ، وتعلمت في المدارس الشيوعية والجامعة الشيوعية ، ومع هذا ثوبي من الظاهر أحمر ، وقلبي عامر بالإيمان الذي أخفيه ، وغيري مثلي .

وسألته عن عدد المسلمين فقال : ليس هناك إحصاء دقيق وصحيح ، ولكن حسب علمي يزيد قليلاً على ستين مليوناً .

وفرح من هذا اللقاء ، وقال : إنني على عهد الله باق ، وليغفر الله تظاهري بالكفر والإلحاد ، ولما أراد مغادرة غرفتي طلب إلي أن أفحص ما وراء الباب والممر ، فذكرت له : أن الممر خال ، فغادر الغرفة مسرعاً وقال : في أمان الله ! فقلت له : كان الله معكم ! .

واتفق ما جاء بجريدة « عكاظ » مع ما ذكر لي الخبير السوفييتي حول عدد المسلمين في الاتحاد السوفييتي ، وهو ما أميل إليه ، لأنه قريب من الرقم الذي كتبته الكاتبة الفرنسية ، ولأن مصدرين اتفقا عليه ، بل علمت من آخرين أن عدد المسلمين ستون مليوناً .

وإذا أضيف إليهم سكان أفغانستان وعددهم ١٥ مليوناً الذين وقعوا فريسة الاتحاد السوفييتي فان العدد يزداد بقدر سكان أفغانستان .

ويذكر الأستاذ محمد صفوت السقا أميني الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة « حرسها الله » في كتابه « المسلمون في الاتحاد السوفييتي » أن عدد المسلمين في الاتحاد السوفييتي يبلغ ثمانين مليوناً .

وقد استقى الأستاذ محمد صفوت معلوماته هذه من أقطاب المسلمين في تلك البلاد عندما زاد سمرقند .

وهذا التفاوت في عدد المسلمين بتفاوت المصادر سببه أن ملايين المسلمين لا يذكرون ديانتهم عند قيام الحكومة بالإحصاء .

وعدد المسلمين في العالم يزداد كل يوم ، وقد يبلغ خلال بضع السنوات

القادمة ألف مليون ، ولكن هذا العدد الضخم الكبير لن يكون خطراً على الشيوعية ولا على الغرب لأنه كثرة بلا جدوى ، كثرة ضعيفة ، أو كما وصف رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام : « غثاء كغثاء السيل » .

ولكن ، قد يكمن بعض الخطر على الشيوعية من مسلمي الاتحاد السوفييتي في مستقبل الأيام ، ويزداد الخطر عليها وعلى الغرب أيضاً عندما تتحد أقطار الإسلام ، وتتساوى مع العملاقين في القوة ، فالعالم الإسلامي بمجموعه من الثروات الطبيعية ما يزيد على ما يملك العملاقان العاتيان .

ويستطيع المسلمون بوحدتهم ومعهم ملايين المسلمين الموزعون في أوربا وأمريكا وعشرات الملايين في الاتحاد السوفييتي أن يكوِّنوا قوة ضخمة في العالم تزداد أتباعاً في حين أن أتباع العملاقين وغيرهما ينقصون ، لأن الإسلام ينتشر ، والغد له بمشيئة الله .

وفي ربع القرن الأخير وجدنا الإسلام يستيقظ ، وكانت يقظته تهديداً لمذاهب العدم التي اتخذت لحرب الإسلام أساليب جديدة ، فزعمت الشيوعية وأتباعها المسخرون في العالم العربي والإسلامي أنهم مسلمون ؛ وجاءوا بما سموه « تنقيح » الإسلام ، وأرادوا منه إفراغ الإسلام من محتواه الحقيقي الأصيل .

وفي كتابنا « الشيوعية والاسلام [1] » وثيقة سرية حصلت عليها ونشرتها في مجلتي « كلمة الحق » التي صدرت سنة ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) ووقفتها لخسائر جسيمة لحقتني .

ونشرت فيها « الوثيقة » السرية الخطيرة التي فضحت مخطط الشيوعية لضرب الإسلام بالإسلام في مصر ثم في العالم العربي والإسلامي .

وإن غرق أوربا وأمريكا في الموبقات واشتغالها بها عن مكافحة الشيوعية

(١) الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الأندلس سنة ١٣٩٢هـ.(١٩٧٢م). والطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).

أعطياها قوة غاية في الخطر ، فرأيت في الولايات المتحدة - في كل ولاياتها - نشاطاً شيوعياً متضرماً ، ولها صحف ومجلات ودوريات وكتب ، وأتباع من كل جنس ، ومن كل طبقة وفئة ، وبخاصة بين الطلبة العرب والمسلمين ، واطلعت على بعض مجلاتها مثل مجلة « المسيرة » التي تصدرها جماعة شيوعية باسم منظمة الطلاب العرب في كندا والولايات المتحدة ، وفي مقدمة هذا الكتاب - بعد هذا التمهيد - مزيد من القول في هذه المجلة الشيوعية .

وقابلني بعض الشيوعيين من العرب من مدّعي الإسلام المقيمين بالولايات المتحدة ، ولم يخفوا عني ميولهم الماركسية ، بل يرونها « المنقذ » ويهاجمون كل أنظمة الحكم .

ورأيت نشاط الشيوعية في البلدان العربية والإسلامية - وما أريد أن أسمي بلداً ، فكل أقطار العروبة والإسلام لا تخلو من أحزاب وهيئات وخلايا شيوعية ، وتعمل بنشاط وبإخلاص لا مزيد عليهما .

وظهور الشيوعية في أفغانستان لم يك وليد الغزو الشيوعي إياها منذ بضعة شهور ، بل كانت تعمل علانية بعد انقلاب محمد داود على الملك محمد ظاهر شاه . ثم أخذت تنتشر حتى دخلت بقواتها الظالمة العاتية واحتلتها احتلالاً عسكرياً .

والشيوعية لم تقرر غزو أفغانستان لأنها أهل لهذا الغزو ، بل احتلت أفغانستان لتجعلها جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفييتي ، ولتنطلق منها الى إيران وباكستان والعراق ودول الخليج العربي .

وقد رأينا سقوط أثيوبيا في يد الشيوعية التي صارت ذات نفوذ قوي في بعض بلدان إفريقيا ، وطبيعي أن تتحول أثيوبيا الى النظام الشيوعي وإطلالها على البحر الأحمر الذي سيطرت الشيوعية على جانب كبير منه يكوّنان خطراً محققاً على السودان ومصر والجزيرة العربية .

وحوض البحر الأبيض ليس خالصاً من النفوذ الشيوعي ، بل تسيطر على

جوانب منه ، ويمكن أن يتحول الى منطقة شيوعية في وقت قصير عندما تضطر الظروف الشيوعية الى السيطرة عليه .

والمقاومة الفردية تذوب إذا واجهت الشيوعية ، فمقاومة المجاهدين الأفغانيين ستنتهي ـ لا محالة ـ الى الفناء ، لأن قوة روسيا كلها تقف في وجه قوة فردية صغيرة .

وكل قطر من أقطار المسلمين مشغول بمشاكله الداخلية التي أوجدها الغرب ، فبريطانيا عندما تركت المغارة الهندية لأهلها تركت معهم النزاع والحقد والبغضاء فيما بينهم، فانقسمت القارة الى دولتين : باكستان والهند ، ثم انشطرت باكستان الى باكستان وبلاد البنغال ، وكذلك الأمر في كل بلد كانت تستعمره بريطانيا وفرنسا وهولندا وغيرها .

ومشاكل كل قطر عربي أو إسلامي تشغله عن مشاكل القطر الآخر ، ولا يسعه أن يقدم أي قطر إسلامي معونة فعالة ، لأن الشرق والغرب يتحدان حينئذ في ضرب ذينك القطرين .

وكل أقطار العروبة والإسلام يجب أن تطهر داخلها من كل نشاط أجنبي ـ وبخاصة النشاط الشيوعي ـ وتعمل على الاتحاد فالوحدة، وأن تفيد من ثرواتها التي ترجح على ثروات العملاقين ، وتكون القوة الثالثة .

وطبيعي أن الشرق والغرب لن يرضيا بوحدة أقطار العروبة والإسلام ، بل هما يدأبان على تفتيت كل قطر حتى يتعدد فتضعف قواه كما رأينا في باكستان المنشطرة ، فصار كل شطر ضعيفاً .

والإسلام وحده الذي يستطيع أن يجعل من الشتات وحدة ، ومن الخوف أمناً ، ومن الضعف قوة ، ومن الفقر غنى ، فالسبيل الأوحد الى تحول هذه الأقطار الى قوة كبرى بين القوتين العملاقتين هو العودة الى الإسلام ، والعودة اليه تقضي بتحكيمه في كل أمر دقيق أو جليل ، وتطبيق شرعه ، وحينئذ تنشأ القوة الكبرى العملاقة الصالحة من نفسها . لأن تحكيم شريعة الله يقضي الى إنشاء كل

ضروب النشاط الصالح والقوة الفاضلة .

وفي الوقت الذي نجد الشيوعية تصدر عشرات الكتب الضخمة وعشرات الكتب من المقاس المعروف بمقاس الجيب هذه الكتب التي تخدع الشباب وغير الشباب ، وتحبب اليهم الشيوعية لا نجد تجاهها كتباً لخصومها .

ووجدت هذه الكتب الشيوعية تباع في « أكشاك » السجائر في جنوب آسيا وفي بلدان افريقيا وفي أمريكا الشمالية والجنوبية .

والمجرم دائم التنبه واليقظة ، أما البريء ففيه غفلة وخمول .

وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية وأعلن السلام خمدت دول الغرب واشتغلت بالسلام ، أما الشيوعية فكانت مدركة أنه لا سلام بينها وبين غيرها ، وبقيت في حالة الحرب ، ودأبت تعمل لها ، فانتصرت في كل ميدان على أوربا وأمريكا وسائر دول العالم ، واستعمرت أقطاراً كثيرة ، وأخذت تضم الى رقعتها الكبيرة أقاليم جديدة .

وليس المسلمون وحدهم هم المسئولين عن مكافحة الشيوعية ، بل يجب على دول أوربا وأمريكا والعالم أن تقاوم الشيوعية إذا أرادت البقاء والنجاة من هذا المذهب الهدام.

وضعف المسلمين من أسباب ولادة الشيوعية ونموها في أحضان أوربا ، وزاد من ضعفهم الاستعمار الغربي الذي حطم المسلمين وبخاصة بريطانيا التي زرعت في كل قطر مسلم تركته سرطاناً يفتك به ، فشغلت العرب والمسلمين بإنشاء دولة إسرائيل التي ضمن لها السيادة والقوة أوربا وأمريكا وروسيا .

وإذا كان الخطر على أقطار العروبة والإسلام محققاً من قبل الشيوعية فإن الخطر أشد على الولايات المتحدة مع قوتها التي قد تفوق قوة الاتحاد السوفييتي الذي يملك حذق إبليس ومهارة الشيطان .

والخطر على دول أوربا وبريطانيا أشد من الخطر على أقطار المسلمين .

وعندما يكون وباء في بلد يتحد العالم كله من أجل مكافحته وحصره ومنعه من التسلل الى أقطاره ، والشيوعية أبشع وباء عرفه الانسان ، وليس المسلم وحده بمكلف بمقاومته ، بل يجب أن يتحد معه العالم كله لمكافحته .

فهل تتحد أوربا وأمريكا ودول العالم مع أقطار العروبة والاسلام ؟ .

هذا ما يجب وجوباً إذا أرادوا أن يحتفظوا لأنفسهم بالحرية والسيادة والكرامة والإنسانية ..

وطبيعي أن الانسان الذي يكون في حالة طبيعية يعمل جاهداً ليضمن لنفسه الحياة الحرة الكريمة .

وعلى المسلمين أن يحملوا الراية ، فهم قبل غيرهم حراس الإنسانية ، لأن دينهم دين الإنسانية الخالد يفرض على المسلمين أن يكونوا خير أمة أخرجوا للناس ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وهذه « الخيرية » تحتم عليهم قيادة الإنسانية وحراستها من مذاهب الشيطان المختلفة .

الثلاثاء : ١٥ جمادى الأولى ١٤٠٠ هـ
١ إبريل (نيسان) ١٩٨٠ م

أحمد عبد الغفور عطار
مكة المكرمة

المقدمة والاهداء

محمد رسول الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام ، نموذج الإنسان الأعلى المُتَخيَّر في كل مكارم الأخلاق ، وأعظم صفة ميزه الله بها دون العالمين فيضان قلبه الكبير بالرحمة التي لا نجدها في مخلوق سواه بل هو نفسه ﷺ كان رحمة للعالمين وما يزال ، وإن الله جل جلاله يقول في كتابه العزيز

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾

وكرر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز مدح محمد ﷺ في مواضع كثيرة منها قوله تعالى :

﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ ﴾

وتفصح هذه الآيات الكريمة عن مكارم الأخلاق التي تفرد بها سيد البشر عن البشر جميعاً .

هذا الرسول الكريم الممتلىء رحمة والمعروف بالوداعة واللين واللطف والسهولة واليسر والدعوة إلى الخير والمنطق الحلو الذي لم تصدر عنه قط كلمة نابية أو خليقة إنسانية لا ترضي أحداً بل كانت كل خلائقه ترضي بإنسانيتها العليا كل إنسان حتى الأعداء الذين يريدون قتله .

هذا الرسول الكريم الطيب الرؤوف الرحيم عاداه اليهود والنصارى عداء

حاقداً وكان محمدﷺ يتحبب إليهم ويستميلهم ويرجو هدايتهم ليعملوا معه لخير الإنسانية جمعاء فعلم الله سبحانه وتعالى ما في قلوب أعدائه فحذره منهم ، وأفصح له عما يكنونه له من بغض وعداء فقال عز من قائل :

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾

فاليهود والنصارى لن يرضوا عن محمد حتى يكون مثلهم في الكفر بوحدانية الله ويتجرد عن رسالته وشخصيته ويتخلى عن الأمانة التي ائتمنه الله عليها .

وطبيعي أن محمداًﷺ لن يتجرد عن طبيعته ولن يتخلى عن أمانته ورسالته فسخط أعدائه عليه دائم وباق ومتجدد .

والمسلم الحق له برسول اللهﷺ أسوة حسنة ،فأعداء الإسلام لن يرضوا عن المسلم حتى يترك إسلامه وهذا مستحيل ، فأنا لي بسيدي رسول الله أسوة حسنة وما أنتظر من الشيوعيين أن يثنوا عليّ أو يرضوا عني إلا إذا تجردت عن ديني وإنسانيتي وقيمي ، وهذا مستحيل كل الاستحالة ، فليس غريباً أن تهاجمني الشيوعية في كل فرصة تحين لهم ، بل يختلقون الفرص للحملة عليّ ولمحاربتي وتعاديني عداء لا هوادة فيه ، وما أنتظر منهم غير ذلك ، فأنا مؤمن بوجود الله وهم يفتخرون بأنهم يجحدون وجود الله وأنا أؤمن وأشهد أن محمداً رسول الله والشيوعيون يكفرون برسالة محمد كفراً شديداً بشعاً وما ينتظر إنسان مثلي يحارب الشيوعية منذ أربعين سنة غير الحقد والعداء وليس في الأرض عداء كعداء الشيوعية لأنه عداء غاية في اللؤم والسفالة والنذالة .

وتصدر بأمريكا مجلة تسمى « المسيرة » زعموا أن منظمة الطلاب العرب بكندا والولايات المتحدة تصدرها ، وهذه المنظمة شيوعية ، وتنفق عليها الشيوعية ، فهم يعيشون على مالها ويدرسون على نفقتها ويعادون من تعاديهم الشيوعية وكل الذين بها من ذوي العاهات فليس فيهم إنسان واحد ذو مكرمة إنسانية بل كلهم خلاصة الشر والخبث والسفالة والدناءة والرذيلة ، وللمنظمة فرعان كبيران نشيطان في « يوجين » وفي « بورتلاند » بولاية أوريجون .

وفي العدد « ١٩ » الصادر في إبريل ـ مايو ١٩٧٨ م هجوم عنيف على بعض الدول العربية المسلمة وبخاصة المملكة العربية السعودية حيث أعلنت المجلة عليها حرب الأكاذيب ، وأسلوب كل الكلمات المنشورة في هذا العدد أسلوب شيوعي صرف وكتابها شيوعيون متطرفون وعبيد مسخرون للماركسية ، ولم تتناول المجلة أي كاتب في المملكة العربية السعودية أو في العالم العربي كله غير كاتب هذه السطور فقد قالت المجلة ما نصه الحرفي : « في جريدة البلاد » العدد ٥٧٣٣ بتاريخ ١٢ يناير ١٩٧٨ لكاتب مأجور هو أحمد عبد الغفور عطار فقرة تقول :

« إنني رأيت أناساً من عامة الشعب خاصموا الملك الشهيد فيصلاً وناقشوه وجادلوه دون أن يصيب أحداً منهم أذى في نفسه أو ماله أو حقوقه المدنية أو أهله فهم في أمن آمن ، وكذلك الأمر بالنسبة للملك خالد وولي عهده الأمير فهد وكل إخوتهما من الحكام والحريات بأنواعها في المملكة العربية السعودية مكفولة من قبل الحكام أنفسهم ومن نظام الحكم القائم » .

فأنا عند المجلة الشيوعية كاتب مأجور لأنني مدحت الملك فيصلاً والملك خالداً والأمير فهداً وإخوتهم الأمراء مع أن كل الكتاب السعوديين بدون استثناء قالوا عنهم أكثر مما قلت بمليون مرة ولكن لم تشر إليهم المجلة ولم تذكرهم بسوء لا لأنهم شيوعيون بل كلهم عدو الشيوعية ، ولكن المجلة الشيوعية آثرتني وحدي بالهجوم والاتهام لأنني الوحيد بينهم في ميدان الجهاد ضد الشيوعية ولأنني السعودي الوحيد الذي حارب الشيوعية بكل ما يملك من قوة ، وسخَّر كل نعمة من نعم الله عليه في محاربتها وهذا آخر كتاب يصدر لي في كشف خطر الشيوعية والشيوعيين على القيم الإنسانية كلها فلا غرابة أن تهاجمني مجلة « المسيرة » الشيوعية بل الغرابة ألا تهاجمني ، ومعروف أن الشيوعية لا تبالي القيم ولا الحق في كل ما تقول وتفعل فأنا عند المجلة وكتابها كاتب مأجور ، لماذا ؟ لأنني مدحت الملك فيصلاً وما ذكرته في مدح الملك فيصل ليس أكذوبة ولا شيئاً مستحيلاً وإنما حقيقة مقررة لا اختلاف فيها .

وهذا شيء معروف عن الملك فيصل ، وليس هذا الذي ذكرته مفخرة

كبرى من مفاخره الكبيرة الكثيرة وأنا أسأل: مأجور لمن ؟ من الذي آجرني ؟ حكومة المملكة العربية السعودية ؟ وما الأجر ؟ وأنا لست موظفاً بها ولست من أصحاب الثروات وإن كنت في ستر عظيم من الله ، وأنا لا أملك أسهماً في شركات ولا عضواً بها له أرصدة في بنوك ويكفي أن أقول للقارىء السليم من العاهات : إن الله سبحانه وتعالى نزهني عن الطمع في الدنيا والتهالك على حطامها ، ومع أن أجهزة الإعلام السعودية تعطي أجزل المكافآت لمفكرين وباحثين لا يصلون إلى مرتبتي وتتمنى أن أتعاون معها وأكتب لها وأتحدث لها وأظهر على شاشة التلفزيون فأبيت منذ ربع قرن مع أني أحسن القصة والمسرحية وأحسن كتابة البرامج الدينية واللغوية والأدبية وإن المجلات السعودية الكبيرة مثل المجلة العربية تكافئني بألف ريال عن كل مقال أكتبه وندر أن تعطي غيري مثل هذه المكافأة ، ومع هذا لم أكتب لها إلا مرة واحدة مجاملة مني لرئيس تحريرها الدكتور منير العجلاني وتطلب إلي جهات بحوثاً علمية بمكافآت سخية فلا أجيب ، وما زلت كذلك حتى الآن مكتفياً بمؤلفاتي التي أصدرها وأقول كما قال الشاعر :

خُلِقْتُ عيوفاً لا أرى لابن حوّة عليّ يداً أغضي لها حين يغضبوا

وأنا الكاتب السعودي الوحيد الذي لا أشغل وظيفة ، ولا أشغل عملاً أدبياً رسمياً ، بل كانت جريدة « عكاظ » ملكاً لي ، ثم حولتها الحكومة إلى مؤسسة ، ولم آخذ كغيري من مالكي الصحف أي « مبلغ » تعويضاً .

وشغّلتني الحكومة بعض الأعمال العالمية الضخمة الكبيرة التي لا يحسنها إلا ندرة نادرة ولم تأجرني عليها ، بل ما أكثر ما تجاهلت جهودي .

اشتغلت لوزارة المعارف قبل عهد الدكتور عبد العزيز الخويطر في إعداد نموذج لدائرة معارف فيصل في الفقه الإسلامي وعملت ثلاثين شهراً ، وخصصت من منزلي جناحين وكان النور والحبر والورق على حسابي .

ثم شغلتني الوزارة في معجم « الفيصل » شهور ولم تعطني أي أجر أو مكافأة حتى اليوم .

والآن وأنا أقدم كتابي الجديد « الشيوعية خلاصة كل ضروب الكفر

والموبقات والشرور والعاهات » وأتهيأ لإصدار كتب أخرى في إظهار حقيقة الإسلام فإنني مهيىء نفسي لمزيد من التهم والقذائف التي يوجهها إليَّ الشيوعيون والمنحرفون والمفسدون في الأرض .

فخصومي ليسوا هم الشيوعيين وحدهم بل يضاف إليهم جيش من الأعداء منهم المنحرفون في الأدب والثقافة ، والصليبيون ، وأعداء الإسلام وأعداء الفصحى ، وعبيد مذاهب الهدم المسخرون لها من عرب ومسلمين ولكني بفضل الله وقوته ثابت على ما أنا عليه لا يمكن أن أتخلى عن الجهاد حتى ألقى الله سبحانه وتعالى فإذا كنت مأجوراً عندما مدحت فيصلاً فنيكسون رئيس أكبر دولة في العالم أثنى على الملك فيصل ثناء جماً كثيراً مستطاباً وكذلك الجنرال ديغول رئيس جمهورية فرنسا ومحمد أنور السادات رئيس جمهورية مصر والملك عبد الله وغيرهم من أقطاب الحكم والسياسة في العالم تجاوزوني بآلاف المراحل في الثناء على الملك فيصل فهل كانوا هؤلاء مأجورين .

عندما يقول الإنسان للبدر : أنت مضيء أفيكون أجيراً لأحد وهل أضفى على البدر صفات ليست فيه ، فأنا وغيري الذين أثنينا على فيصل لم نُضِفْ صفات من عند أنفسنا بل وصفناه ببعض مزاياه الأصيلة التي لا تنفصل عنه ، بل هي جزء منه ولكن لا عتب على الشيوعية والشيوعيين فهم مطبوعون على الكذب دائماً ولا نصيب لهم من الخلق فهم مجردون من الإنسانية نفسها .

وكان من آثار الشيوعية أن أفسدت ضمائر آلاف الكتاب والمفكرين في العالم وأصابتهم منها عدوى الوقاحة والجرأة واختلاق الأكاذيب وإلصاقها بالأبرياء ، وأذكر بهذه المناسبة تهمة كتهمة مجلة المسيرة الشيوعية وجهها إليَّ كاتب سعودي بمجلس الكاتب الكبير عباس محمود العقاد ولم أكن حاضراً وروى الرواية الأستاذ عامر أحمد محمود العقاد في مقال له نشر بجريدة « عكاظ » السعودية منذ بضع سنوات تحت عنوان « الصلة بين العطار والعقاد » وها هي ذي الرواية كما رواها بقلمه في بحثه ؛ يقول الأستاذ عامر العقاد : « وبلغ من وفاء العقاد لصديقه العطار أنه ما كان يسمح أن يذكر العطار بغير التجلة لأنه يرى أن صديقه جدير بها وأهلها ، فما ذكر أحد العطار بغير الحق إلا تصدى له العقاد في

قوته وجبروته وأخرسه بالحق والبرهان .

« وذات مرة حضر ندوة العقاد كاتب سعودي أحمق ومعه بعض الشيوعيين فذكر الأستاذ العطار بسوء فغضب العقاد غضباً شديداً وزجرهم زجراً عنيفاً وهاجم العقاد هذا الكاتب السعودي وقال جامعة من جوامع كلمه : « قل لي رأيك في العطار أقل لك من أنت ؟ ثم قال العقاد : ما خلائقه ؟ إنه أعلى مثل إنه صدوق وكريم وشجاع والصدق والشجاعة والكرم جماع كل الخلائق الإنسانية الفاضلة .

وما يذم أحد العطار إلا كان الذام هو الناقص المذموم ، وطبيعي أن يخاصم النقص الكمال .

« ومَنْ خصوم الأستاذ العطار ؟ إنهم ليسوا إلا مدخولي الشعور فاسدي الخلق زائفي العقيدة .

« وإذا قلت رأيك في العطار فقد أفصحت عن مكنونات ضميرك وخلائقك ، فإن كان ما تقوله فيه شراً فأنت الشرير اللئيم ، وإن ذكرته بخير فهو أهله فقد برهنت على أنك خيرٌ وكما قيل : لا يعرف الفضل إلا ذووه .

«وإن وجود الأستاذ العطار وأمثاله بشير بأن الإنسانية بخير» .

« وأفاض العقاد في وصف العطار وعدَّه من كبار المفكرين والمصلحين الإسلاميين في هذا العصر .

« وبلغ من قحة الكاتب السعودي الأحمق أن قال : إن العطار معروف بحرق البخور وقد وصفه بذلك الدكتور أحمد زكي أبو شادي في حديث له بإذاعة صوت أمريكا .

« وهنا اشتد غضب العقاد وقال له : أتعرف معنى حرق البخور ؟ إنك أنت وأبو شادي ممن يحرقون البخور ، إن من يمدح الناس بما ليس فيهم هو المنافق الكذاب ، والذين يمدحون المجرمين ويشيدون بهم هم شر المنافقين ، وأنت وأبو شادي منهم ، ألأن الأستاذ العطار ألف كتاباً ضخماً في ابن سعود يتهم بحرق البخور ؟ إن ابن سعود أكبر عربي وأعظم مسلم على الإطلاق في هذا العصر لأنه

يجمع مزايا العرب وصفات المسلم المؤمن ، وأنا أقول هذا ولا أحد في الدنيا يستطيع أن يتهم العقاد بحرق البخور أو النفاق ، وما قاله العطار في ابن سعود حق كله ، إذا كان الرجل الذي يبني أكبر دولة عربية مسلمة ويحضرٍ بلاده وينقلها من البداوة إلى الحضارة في وقت يسير لا يستحق التمجيد فمن يستحقه ؟ أيستحقه فؤاد ملك مصر؟ إن ابن سعود شخصية فريدة في التاريخ الحديث وليس في تاريخ العرب والمسلمين وحسب .

«وأفاض العقاد بذكر مزايا ابن سعود وعظمته وعبقريته .

« ثم عاد العقاد إلى من تجنى على الأستاذ العطار واغتابه وقال له :

« شاهدك أبو شادي هو المنافق ، أليس في أمريكا يخدم السعوديين والوفد السعودي في الأمم المتحدة ؟ ألا يعمل في الترجمة لديهم ؟ أتراهم في حاجة إليه وإلى ترجمته؟ إنهم في غنى عنه ولكنهم تصدقوا عليه بهذه الوظيفة ليعيش ، إنهم فضلاء ، إنه يمدحهم ويذل لهم وهو يضمر لهم غير ما يظهره ، ورسائله لهم مليئة بالذل والخنوع وفي مجالسه يذكرهم بسوء ، ولولا السعوديون لازداد جوعاً في أمريكا ، أبو شادي بتاعك هو الذي يحرق البخور ، إنه مدح حكاماً مجرمين مصريين تلقاء دراهم تسلمها منهم وباعهم نفسه ، ما أخسر قضيتك ما دام شاهدك أبو شادي ، أما الأستاذ العطار فمدحه لابن سعود حق كله وما رأيك في أكبر خصم لابن سعود يمدحه ويشيد به إنه الملك عبد الله ، إنه أعدى أعداء ابن سعود ثم عاد إلى الحق وأثنى عليه وهذا يدل على نبل الملك عبد الله وتوخيه الحق ، أترى الملك عبد الله حارق بخور » ؟ .

عندما قامت للشيوعية دولة سنة ١٩١٨ م وهاجموا الأقطار الإسلامية مثل طاشكند وكازخستان وبخارى خرج ملايين اللاجئين من المسلمين فراراً من الشيوعية إلى البلدان الإسلامية ودخل مكة منهم عشرات الألوف وامتلأ حي المسفلة بمكة بالآلاف منهم وكان منزلنا في ذلك الزمن بحي المسفلة ، وكانت دارنا بفضل الله مفتوحة للضيوف وكان بينهم وبين والدي رحمه الله صلة صداقة ومحبة فكانوا يزورونا في منزلنا ، وكنت حينئذ في الثانية عشرة من عمري وسمعت منهم أحاديثهم بمجلس والدي وكلما امتد بي العمر كانت تزداد صلتي بهم وسمعت

عن وحشية الشيوعيين وعن لينين ورفاقه ما تقشعر له الأبدان وعلمنا منهم أن الشيوعيين يجحدون وجود الله ويكفرون بالرسل ويكذبون القرآن ، ومنذ ذلك الحين صارت الشيوعية عندي أكره شيء في الحياة . لأن المسلم الحق لا يكره شيئاً كرهه للكفر وليس في الأرض كفر أبشع لؤماً من الشيوعية ومنذ ذلك الحين وأنا أحارب الشيوعية وما أنتظر منهم الا الحرب وقد دأب الشيوعيون أن يقذفوا خصومهم بشر النعوت ويخترعون عليهم الكذب ، وأن كتابي هذا سيدفعهم دفعاً إلى مزيد من التهم يقذفونني بها وسينهض لمحاربتي عبيدها المسخرون ولكني لن أباليهم ، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يؤيدني في حربي للشيوعية والشيوعيين .

وقررت أن أقضي أنا وأسرتي الإجازة الصيفية في قبرص ، وأنجز تأليف كتابي هذا خلالها ، ويشاء الله جل جلاله أن أصاب بمرض ظننته أنا وأهلي والأطباء مرض الموت ، وفي ليلة الخميس بلغ الخطر غاية مداه ، وما كان لي مأمل إلا العودة إلى مكة المكرمة حرسها الله وأن يكون مدفني في أرضها المقدسة

وكان قد سبقني إلى مكة إحدى بناتي مع أخيها لتؤدي امتحاناً عليها في الجامعة ، وتركاني وأنا في حال الخطر ، وعلم بالأمر الأستاذ الفاضل الشيخ علي شبكشي ابن صديقي حسين شبكشي - طيب الله ثراه - فبعث إلينا طائرة خاصة نقلتنا إلى جدة لعلاجي وإسعافي جناحاً بمستشفى الدكتور سليمان فقيه .

وأدركتني رحمة الله فهيأ لي الدكتور سليمان فقيه الرعاية التي لا مزيد عليها ، ووقف كل قدرته ، وقدرة مستشفاه وأسرته الطبية وعلى رأسها الدكتور محمد الجندي والدكتور عصام الكاشف لإنقاذ حياتي فتم بحمد الله وفضله ، ولما أحسست بشيء من الصحة والقدرة شغلت نفسي بإنجاز ما بقي من الكتاب وكتابة هذه المقدمة ، فرأيت أن يكون إهداؤه إلى نخبة الفضلاء الكرام : الشيخ علي شبكشي والدكتور سليمان فقيه الذي أبى فضله إلا أن تكون كل نفقات علاجي ونفقات إقامتي أنا وزوجي وتبلغ عشرات الألوف على حسابه الخاص وقد تقدم بعض الفضلاء ومنهم الكاتبان الرائدان الأستاذان السيدان علي وعثمان حافظ والسيد حسن شربتلي ، والأستاذ الكبير الشيخ عبد المجيد شبكشي رئيس تحرير

جريدة البلاد والشاعر الكبير ، صديق الصبا وزميل الدراسة الشيخ حسين عرب ، والإمام اللغوي الكبير الشيخ عبد القدوس الأنصاري ، يعرضون على الدكتور سليمان فقيه أن تكون نفقات علاجي وإقامتي على حسابهم ، فاعتذر لهم كما اعتذر للشاعر الكبير الأمير عبد الله الفيصل أن تكون النفقات على حساب الدكتور الفقيه نفسه ، فأنا أهدي كتابي هذا إلى هؤلاء الأفاضل الكرام ، وأشكر لهم فضلهم والشكر مهما أجزلته لهم ليس كفاء فضلهم .

الخميس : ٢٠ ذي القعدة ١٣٩٩ هـ
١١ أكتوبر ١٩٧٩ م

أحمد عبد الغفور عطار
جُدَّة ـ مستشفى الدكتور سليمان فقيه

الشيوعية أصلها ومنشؤها

أصل فكرة الشيوعية نمو شاذ غريب نجم عن تفاعل عناصر متعددة وأسباب مختلفة لم تجتمع - ولا يظن أنها تجتمع مرة أخرى على النحو الذي اجتمعت للشيوعية في أوربا الغربية في القرن التاسع عشر الميلادي .

ولم يلبث هذا النمو الشاذ الغريب أن يتضخم حتى استحال إلى ورم سرطاني خبيث كان كفيلاً بأن يقضي على حياة صاحبه ، وما صاحبه المصاب به إلا مجتمع أوروبا الغربية ، أوروبا المسيحية المنقسمة بين كاثوليكية ولوثرية وبروتستانتية ، أوروبا الصناعية المنقسمة بين منتجين ومُسْتَغَلِّين ، أوروبا العلمية المنقسمة بين متدينين يتوجسون خيفة من العلم الذي تجهَّم للدين ، ومن مناهج العلم المتحررة ، وبين أرباب هذا العلم الذين جعلوه بديلاً عن الدين ، وغرهم علمهم المادي الذي ابتهجوا به وبنتائجه ومنطقه وانبثاقاته وصناعاته وحضارته ، حتى حملهم تقدم العلم إلى الكفر بالدين ، فعَمِيَتْ منهم البصائر والأبصار حتى أنكروا الروح ، أوروبا التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر بعد نهاية الفترة النابليونية ، وقبل مطلع القرن العشرين الذي شهد أبشع حربين عالميتين عُظْمَيَيْنْ اجتاحتا كل قيم الإنسان .

أوروبا التي ظنت أنها ملكت ناصية الحياة بحضارتها المادية التي زلزلت المقدسات والموروثات الإنسانية ، وحملتها سيطرتها على العالم عن طريق

استعمارها لشعوب العالم على الغرور فكفرت بالروح والمقدسات .

أوروبا القرن التاسع عشر هي التي حملت جنين الشيوعية من تلك الأوضاع التي سادتها ، وهي أوضاع شاذة غير طبيعية ، فكان وليدها شاذاً وغير طبيعي .

ولئن كانت النتيجة الطبيعية لذلك الجنين النمو الشاذ الغريب غير الطبيعي الذي أريد منه أن يقضي على أوربا المسيحية وعلى المسيحية نفسها فإن هذه الإرادة لم يكتب لها أن تقضي على المسيحية قضاء مبرماً ، لأن ذلك الجنين الشاذ الذي بلغ مبلغه لم تكن له القوة المادية التي تستطيع أن تهدم أوروبا المسيحية .

واليهود أعداء الإنسانية وكل دين هم الذين كانوا تلك الأوضاع الشاذة ، وهم الذين أوجدوها ، وهم كانوا آباء ذلك الجنين الشيطاني الذي عرف باسم الشيوعية أو الماركسية أو الاشتراكية العلمية تمييزاً لها عن اشتراكيات أخَر .

ومع أن هذا النمو الشاذ كان ورماً أخبث من الورم السرطاني فإن الله جل وعلا قد أنجى أوروبا من أن تسيطر عليها الشيوعية وتكتب عليها الدمار الماحق ، وإن بقي بها عقابيل الداء التي تدل عليه آثار الداء وندوب الجراح .

ولكن الداء نفسه لم يستسلم للطب ، فبقيت جرثومته تتنقل من بلد إلى بلد ومن مجتمع إلى مجتمع ، وبدلت الجرثومة زيها وشكلها ومظهرها ومعطياتها ومعتقداتها بأزياء وأشكال ومظاهر ومعطيات ومعتقدات تحتفظ الجرثومة في كل ذلك بخطرها الذي لا ينفصل عنها مهما تغيرت الأزياء والأسماء والأشكال والمظاهر .

ولما كانت اليهودية اللئيمة أم الشيوعية فإن الشيوعية برعاية أمها قد استطاعت أن تتجزأ أجزاء يحتفظ كل جزء بخصائص الأصل ، وإن كان قد نشب بين هذه الأجزاء صراع رهيب يراد منه القضاء على الإنسانية وليس على المتصارعين أنفسهم .

وقد رأينا مجموعة كبيرة من الأيديولوجيات التي تتسمى بالشيوعية يبلغ

الخلاف بينها إلى حد العداء والمناجزة ، بحيث يرجحان على ما بين الشيوعية وبين الأيديولوجيات الرأسمالية والديمقراطية ، بَلْه الاشتراكيات وما يسمى بمذاهب الإصلاح من هذه الاشتراكيات .

وسبب نشأة الفكرة الشيوعية أو أسبابها اجتماع عوامل متعددة ما كانت لتجتمع لولا تلك الأسباب التي انبعثت من اجتماعها الفكرة الشيوعية .

وهيأت أوروبا القرن التاسع عشر لاجتماع تلك الأسباب التي ما نظن أنها ستجتمع مرة أخرى لميلاد مذهب يهدم كل القيم الإنسانية عن طريق الثورة والدم .

وأهم تلك العوامل أو الأسباب دون أن نعمل على حصرها مكتفين بالأهم منها :

١ ـ تآمر اليهود على العالم كله تمهيداً للسيطرة عليه ، فاليهود ـ كما هو معروف ـ سبب شقاء العالم ، وما شَقِيَ العالم بشعب في التاريخ الإنساني مثل شقائه باليهود ، فهم وراء كل فتنة خطيرة ، أو حرب كبيرة ، أو أزمة اقتصادية ، أو أخلاقية ، أو اجتماعية ، أو مالية .

ومن المصادفات العجيبة اجتماع العقلية اليهودية المتمثلة في كارل ماركس مع التعصب الانجليزي للحرية الفردية والحرية الفكرية بخاصة ، مع القلق والاضطراب اللذين سادا فرنسا بعد ثورتها الكبرى التي خطط لها اليهود ، وبعد فترة دكتاتورية نابليون ، مع الفكر الألماني المتمثل في فلسفة عمانويل كانت وفردريك هيجل ولفيف من أتباعهما .

ولا شك عندنا أن الفكر اليهودي الناقم على الإنسانية كلها هو أصل الفكرة الشيوعية التي تتفق معه في الأصل والمنزع .

٢ ـ خروج العلماء على سلطان الكنيسة ومروقهم بسبب العلم من الدين لما كان بين الدين المسيحي والعلم من خصومة عنيفة كانت سبباً في إزهاق أرواح بعض العلماء في أوربا في القرون القريبة التي سبقت القرن التاسع عشر

الذي أصيبت فيه الكنيسة الكاثوليكية بضربات قاصمة على أيدي العلم والعلماء .

٣ ـ الوقوع على مصادر الطاقة التي بدأت باكتشاف قوة اندفاع الماء ومن بعده اكتشاف قوة البخار التي أعقبتها قوى عديدة أخرى كالكهرباء ونحوها وما يسمى بالانقلاب الصناعي .

٤ ـ وهناك عامل نراه أقوى العوامل طرا ، ألا وهو تأخر الشرق وغفلته وسباته حتى فقد الشعور بما يجب أن يفعل ، والإحساس بالعزة والكرامة ، وخضوعه للسيطرة الغربية والاستعمار الغربي الذي قضى على قوته المادية والروحية .

وإن تأخر العالم في الأخلاق الفاضلة وشيوع المفاسد فيه يُعْزيان إلى تأخر المسلمين بخاصة والشرق بعامة ، لأن انتقال قيادة الإنسانية من الشرق المسلم إلى الغرب الذي كفر بالروحيات وآمن بالماديات أخل خللاً شديداً بميزان قوى الأخلاق حتى صار العالم متهيئاً لقبول كل النظريات الإلحادية ودعوات الهدم والتخريب .

وطبيعي أن يؤدي سبات الشرق وتأخر المسلمين إلى أن يخلو الجو العالمي للغرب الذي لا يحسن أن يرعى الإنسانية فأصابها منه ما زلزل قواعد الفضيلة والخير والأخلاق .

ولو علم الله سبحانه وتعالى أن غير الشرق وبخاصة جزيرة العرب التي يعد العراق والشام من صميمها يصلح لصدور رسالات السماء منه لما آثر الشرق برسالاته .

ويكفي الشرق فخراً أن أهدى الديانة المسيحية إلى الغرب كله أوروبا وأمريكا ، كما أهدى الإسلام خير دين إلى الإنسانية كلها .

فإذا غفا الشرق عن قيادة الإنسانية فقد كتب على العالم أن يغرق في الإلحاد والرذائل والموبقات ، وقد غرق فيها كما شهدنا ونشهد .

هذه هي أهم العوامل التي أدت إلى ميلاد الفكرة الشيوعية ، ونكتفي بها دون ذكر غيرها ، وفيما يلي إيفاء القول في كل عنصر أو عامل من تلك العوامل الأربعة لنعطي القارىء مزيداً من الإيضاح لما أوجزناه فيما سبق .

أ - تآمر اليهود على العالم

إذا رجعنا إلى تاريخ اليهود الأول القديم يَجْبَهُنا منه أبشع ضروب الأخلاق والطبائع الكريهة المقيتة التي لا يمكن وجودها في أناس غير اليهود .

فهو شعب مغلق على نفسه ، ويحقد على غيره ، حتى أن تلمودهم يقرر في صراحة أن غيرهم « قوييم » وتعريف القوييم عندهم : الكفرة والأنجاس والبهائم ، والخنازير إلخ .

ويزعُم تلمودهم أن غير اليهود « حيوانات » في الأساس ، ولكنهم خلقوا على هيئة الإنسان ليكونوا في خدمة اليهود في بيوتهم وأسواقهم ، ولو ثبتوا على خلقتهم الأصلية لنفرت منهم أعين اليهود حينما تتجول الحيوانات في بيوتهم وغرفها للخدمة ، فمن أجل ذلك تحولت خلقة القوييم من الحيوانية إلى البشرية .

وهذه الفكرة لدى اليهود عقيدة وإيمان ، يتفق فيها حاخاموهم وعلماؤهم وجهالهم وأغنياؤهم وفقراؤهم وذكورهم وإناثهم وكبارهم وصغارهم ، لا فرق بين أحد منهم في هذا الاعتقاد .

ويزعم كتابهم المقدس (التوراة) أن اليهود وحدهم هم شعب الله المختار ، وغيرهم ليسوا إلا حيوانات مهينة كما يذكر تلمودهم .

وعلى هذا الاعتقاد الراسخ في نفوسهم نقموا على بني البشر حتى الأطفال

والرضّع ، وحقدوا عليهم أشد الحقد الذي يتوارثونه .

وحملهم حقدهم على الناس جميعاً أن يعملوا على الإضرار بهم في كل شيء ، فأباحوا لأنفسهم سلب غيرهم كل ما تحت يدهم على اعتقاد أنه حقهم وحدهم استولى عليه القوييم بغياً وعدواناً ، فيجب أن يستردوه منهم بأي وسيلة تمكنهم منه .

ومعتقدهم هذا في بني البشر دفعهم إلى أن يديموا التفكير في ابتكار كل ما فيه الإضرار بالناس جميعاً دون استثناء أحد منهم ، سواء أكان طفلاً أم رجلاً ، مسيحياً أم مسلماً أم غيرهما ، طيباً أم خبيثاً ، أبيض أم أسود ، كل الناس على السواء دون تفريق .

ابتكر اليهود مختلف مذاهب الهدم : هدم المعتقدات والأديان والأخلاق والقيم والآداب والعلوم والفنون .

وليس في الأرض عقل مجرد عن التفكير في الخير غير العقل اليهودي الذي طبع على الشر المحض الذي بنوه على أساس معتقدهم الفاسد الهدام .

وليس في الأرض عقل يجمع المتناقضات في آن واحد غير العقل اليهودي ، فهو وحده الذي يمكن أن يجمع الشيء ونقيضه ، يجمع الكفر والإيمان ، والرذيلة والفضيلة ، والشرك والتوحيد .

وليس معنى هذا الجمع أن إيمانه حق ، وفضيلته صحيحة ، وتوحيده سليم ، بل العقل اليهودي في حقيقته مصوغ من الكفر والإلحاد والرذيلة والشر ، وأما نقائضها فهي ألوان وأزياء للخداع والغش والتضليل والتمويه .

يصرخ اليهودي من التفرقة العنصرية والتمييز العنصري ، لا لأنه إنساني يعمل للأخوة الإنسانية ، بل يقوم بالتنديد بهذه التفرقة العنصرية لأن اليهود أنفسهم يدخلون فيها ، فهم ينددون بالتمييز العنصري بين البيض والسود لا غيرة منهم على السود في أمريكا ، بل لأن لهم مصلحة في هذا التنديد ، فاليهود يحاربون هذه العنصرية ليتحرروا هم وليس السود في أمريكا ، وليضمنوا العداء

بين السود والبيض من الأمريكيين واستمرار هذا العداء ، لأن لليهود مصالح كبيرة في هذا العداء الذي يمكنهم من السيادة على الجانبين ، وليظهروا بمظهر الإنسانيين الصالحين .

وتظاهر اليهود بهذه الغيرة طُعْم الصياد للسمك ، فهولا يريد إطعام السمك ، وإنما يريد أن يجعله طعامه بذلك الطعم الذي لولاه لما استطاع أن يغنى ويشبع من السمك .

ولا يمكن أن يوصف الصياد من قبل الصيد بالإنسانية والرحمة ، وكذلك اليهودي .

ولم يقف أي دين على حقيقة اليهود ونفسياتهم وطباعهم ومعتقدهم غير دين الإسلام الذي كشف اليهود وعرّاهم تعرية تامة ، وفضحهم على الدهر ، ولم يستطع اليهود أن يحرفوا كتاب الإسلام (القرآن الكريم) ولا أن يخدعوا المسلمين كما فعلوا بالمسيحية ، إذ حملوا المسيحيين على الإيمان بتوراتهم ، فآمن المسيحيون بأن اليهود شعب الله المختار ، وآمنوا بكل ما جاء في هذه التوراة من أكاذيب وأباطيل وكفريات على أنه وحي مقدس .

وزعم اليهود لأنفسهم أنهم أولياء الله وأحباؤه ، فآمن المسيحيون بهذه الأكاذيب اليهودية وأيدوها ، ومن هذا الإيمان تأييدهم لليهود في دعواهم أن فلسطين أرض موعودة لهم ، لأن توراتهم تنص على هذا الوعد .

أما الإسلام فيعلم أن اليهود شر الخلق وأكذبهم وأفجرهم وأشدهم كفراً وتوحشاً ، وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تبين حقيقتهم ، ومن جملة هذه الآيات قول الله عز وجل :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ * قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * وَلَا

﴿ يَتَمَنَّوْنَهُ وَأَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ .

فالفضائل التي يدعيها اليهود لأنفسهم هي غير موجودة فيهم مطلقاً ، وقد زعموا لأنفسهم الولاية فادعوا أنهم أولياء الله ، والولاية أعظم مراتب القرب من الله جل جلاله ، والولي الحق أصلح البشر ، ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى مرتبة الولاية حتى يحب أخاه الإنسان ، ويؤثره على نفسه ، ويؤمن بالحق ، ويعمل الصالح ، ولا يقول إلا حقاً وصدقاً .

وادعاء اليهود لأنفسهم الولاية حتى تبجحوا بأنهم أولياء الله ادعاء باطل ، ويكفي أن الله الذي انتسبوا إليه هو الذي كذبهم تكذيباً .

وكل دعاواهم التي من هذا القبيل باطلة كاذبة أرادوا منها خداع البشر وتضليلهم ففضحهم كتاب الإسلام ووصفهم على حقيقتهم ، فهم كفرة فجرة ، وهم قتلة الأنبياء ، وهم أكّالوا السحت ، وهم شر الناس طراً .

ومجموعة صفاتهم تجردهم من الحيوانية بَلْه الإنسانية ، فالحيوان لا يفترس وهو شبعان ، أما اليهود فهم مولعون بالافتراس وهم على شبع مثل النار تأكل ما يلقى إليها .

فالطبيعة اليهودية المجردة عن الخير كله هي التي صيغ منها عقل اليهودي ، فكان مثل طبيعته في الفساد ، ولهذا وجدنا العقل اليهودي هو العقل الوحيد المأوف الشاذ الذي لا يصدر منه إلا الشر المحض .

فلا غرابة أن يلد العقل اليهودي الشيوعية أخطر مذاهب الهدم ، فهو مذهب يفسد الحياة كلها ، ولا يقتصر الفساد على جانب منها ، يفسد العقيدة والشعور والعقل والخلق والسلوك وما ينتج عن كل هؤلاء .

وليس في البشرية كلها عقل شيطاني هدام غير العقل اليهودي الأناني الضال الذي لا يتقن غير الإجرام وهدم كل ما هو خير وصالح ، ولا يحيا إلا على

العصبية الرعناء العمياء ، ولا يرى الحق إلا فيما جر إليه مغنما ، ولا يرعوي عن غي ، ولا يقلع عن باطل ، لأنه مصوغ من الغي والباطل ، ولا يحتكم إلا إلى الإله الذي صنعوه لأنفسهم ، فلا يحكم إلههم إلا لهم ، لأنه انعكاس نفوسهم الشريرة وطبيعتهم الحاقدة .

كانت كل هذه الأشياء الكريهة المقيتة وما ينجم عنها من مواليد الشر والقبح والرذيلة هي البوتقة التي تجتمع فيها عوامل الفساد الأخرى التي أشرنا إليها ليتكون من مجموعها المذهب الشيوعي الذي هو خلاصة الشرور والآثام .

وقد وقّت اليهود لميلاد الماركسية فظهرت في عصر غربت فيه شمس الحق والخير والروح لتشرق بدلها شمس الكفر والشر والمادية ، وهيأت لها أحوال أوروبا المسيحية لتجد مجالاً واسعاً لانتشارها ، وأساساً قوياً راسخاً ليقوم عليه كيانها .

فحال العمال نساء ورجالاً وشيوخاً وأطفالاً كانت تتطلب إصلاحاً ، وحال المناطق الصناعية الكبرى كانت من السوء مثل حال العمال ، وكلتاهما كانت تستغيث وتستنجد طالبة الإصلاح ، وما ثَمَّ من يغيث وينجد ، لأن العِلْية كانوا هم مصدر الفساد كله .

ومع هذا نهض مصلحون يريدون للإنسان أن ينعم بما وهب الله له من خير ، ونادوا بأن حقه في الحياة الفاضلة حق طبيعي ، ولكن فقدان شرع الله والعدالة أخل بكل أحوال الإنسان ومجتمعه ، نادوا بما يضمن للإنسان حقه وحريته وحيَاته ، ورأوا أن تحقيق العدالة الاجتماعية كامن في الخير ، ووسائل التحقيق يجب أن تكون شريفة فاضلة ، فالوسيلة المتخذة لتحقيق ما هو خير يجب أن تكون كفاء الغاية الصالحة التي لا يمكن الوصول إليها إلا بوسيلة شريفة فاضلة .

فالتغير الذي يريده المصلحون الطيبون لا يتم إلا عن طريق الدعوة والتعليم والسلام ، وذهبت دعوات المصلحين وجهودهم هباء .

أما كارل ماركس فيتجهم للدين والمثل والمبادىء ويكفر بها ، ويعلن الحرب على الإصلاح ، ولا يعترف إلا بالتغير .

نعم ، التغير هو الذي سيحدث وليس الإصلاح ، إن التغير هو الذي سيحدث رغم أنف كل قوة في الأرض أو في السماء ، ولن يحتاج إلى دراسة تمهد له ، لأن الذي يمهد له هو الصراع الحتمي بين الطبقات .

ذلك هو الهيكل العظمي للفكرة الشيوعية ، أو ذلك النمو الغريب الذي وجد في أوروبا الغربية أثناء القرن التاسع عشر .

ولقد كان خليقاً بهذا النمو الغريب الشاذ أن يموت في باكورته لولا الشعب البريطاني في ذلك القرن الغريب العجيب ، والشعب البريطاني حينئذ كان شديد التفاخر والمباهاة بأنه معقل الحرية بكل صنوفها : حرية الرأي والفكر ، وحرية التعبير ، وحرية النشر وغيرها ، وأنه مثابة العلم والأدب والثقافة ، ومأمن كل خائف ، وملجأ كل مضطَهَد منذ لجأ إلى بلاده الخائفون الهاربون من الثورة الفرنسية ، ومن نابليون ، واللاجئون الخائفون من ملوك البوربون الذي صدق عليهم أنهم « لا ينسون شيئاً ولا يذكرون شيئاً » ومنذ حققت ثورة الإصلاح النيابي بحكم الانتخابات ومجلس العموم ، ومنذ اتسعت امبراطوريتهم حتى شملت الهند وما وراء البحار وصارت الشمس لا تغيب عن أملاكها والشعب البريطاني يتباهى بهذه الحرية .

الشعب البريطاني الذي تلقى الفكر الماركسي واحتضنه لكي يقال : إنه معقل الحرية والأحرار هو مسؤول عن نشأة الشيوعية التي وجدت في بريطانيا التربة الخصبة والمناخ الصالح اللذين مكّنا لهذا النمو الشاذ الغريب أن يتضخم ليكون الورم السرطاني الخبيث الذي أصاب الإنسانية بشرٍّ ما يصاب به الكائن الحي .

وساعدت أحوال فرنسا على تضخيم هذا الورم ، فقد خرجت فرنسا من حروب نابليون بأمرين متناقضين : هما : زهو العزة والفخر ، ومذلة الحاجة

والفقر ، وتولى أمرها أناس ليس لهم قدر ولا قدرة على الحكم ، وكل ما لهم من مؤهلات الحكم ميراث أسرة متهالكة فقدت خصائصها من اعتمادها على الحسب دون أن يكون لأفرادها عمل يتكافأ معه ، بل كانوا يعيشون على سمعة لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر اللذين كانا من أعظم الملوك والقادة ، وهم كانوا خواء من خصائص السلف ، فكان نصيب فرنسا الاضطراب واختلال الأمن والثورات يأخذ بعضها برقاب بعض دون أن يكون في استطاعتها معرفة الدواء ، لأنه لم يكن في وسعها تشخيص الداء ، والاهتداء إلى الدواء .

ولا يظنن أحد أن ادعاء الإنجليز أن بلادهم مثابة الخائفين وملجأ المضطَهَدين ادعاء صَحيح ، فلا مزية لهم في ذلك ، لأنهم لم يكونوا هم سببَ هذه الحرية ، بل كان اليهود هم الذين أوجدوها ، ليكونوا هم ـ لا الإنجليز ـ أحراراً في بلاد الإنجليز الخاضعين لسلطة اليهود .

وكذلك فرنسا كانت خاضعة لهذه السلطة ، فاليهود كانوا يسيطرون على السلطة الفرنسية منذ أن أشعلوا ما يسمى « الثورة الفرنسية » التي لم يكن لفرنسا يد في إشعالها ، بل أشعلها اليهود ، وكانت فرنسا الضحية .

يقول ب . هيبس في كتابه « الكتاب المقدس للشعوب المغلوبة » صفحة ٢٨٣ :[1]

« منذ اليوم الذي رأس العاهل البريطاني المحفل الماسوني لم يعد بين رجالات بريطانيا السياسيين والبارزين من لم ينتسب لهذا المحفل الذي يوجهه اليهود حسب أغراضهم وأهوائهم » .

ونشرت الصحيفة المسماة « الصحيفة الحرة » Free Press البريطانية نقلاً عن كتاب « هيبس » المار ذكره من صفحة ٢٨٣ نفسها ما يلي :

« بعد أن هيمنت الهيئة الصهيونية المسماة « كريت روسل ستريت » التي

---

(١) الماسونية ، تأليف أحمد عبد الغفور عطار ، بيروت ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م) الطبعة الثانية ، راجع ص ٤٧ وما بعد .

تشرف على رئاسة المخابرات المشرفة على المخابرات البريطانية التي تعتبر أهم أجهزة الدولة وأقواها ، والتي تتدخل في شؤون التاج البريطاني نفسه لم يعد النفوذ اليهودي محصوراً في الأحزاب السياسية وحسب ، بل تعداها إلى السيطرة على مقدرات الأمة بأسرها ، وهكذا أصبح اليهود في بلدنا فوق الجميع » .

فإذا كانت فرنسا وبريطانيا واقعتين تحت النفوذ اليهودي فإن أوروبا ـ تبعاً لهما ـ كانت رازحة تحته ، وبذلك هيأ اليهود التربة الخصبة للشيوعية التي هي وليدة الصهيونية كما قال الملك الشهيد فيصل بن عبد العزيز رحمه الله وأسكنه الجنة .

والشيوعية يهودية في فكرتها ومصدرها ومنشئها ورسالتها الشيطانية ، وما فكر اليهود في إيجاد هذا المذهب الخطر الهدام إلا رغبة منهم في تدمير الإنسان وقيمه ، وتجريده من خصائصه الإنسانية ومعتقده ، حتى يستطيعوا استعباده ، والاستيلاء عليه وعلى كل ما يملك .

ولمعرفة مذهب من المذاهب تجب معرفة حقيقة صاحبه وخلائقه وحياته ، فمن كارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣ م) ؟

إنه يهودي ابن يهودي ، صبأ الأب ثم صبأ الابن ، وما كان صبوء الأب إلا طمعاً في المادة ، وتنكر بالدين الجديد وهو المسيحية ليدرأ عن نفسه نقمة الناس عليه ، وليجر لنفسه المغانم .

وابنه مثل أبيه ، نشأ فقيراً خاملاً ، وكان يرجو أن يحصل على المال بدون جُهد يبذله ، بل يريد أن يأتيه المال دون سعي منه وجهد ، وما يأتي الرزق بغيرهما ، فنقم على الناس ، وكان يريد من السماء أن تمطره ذهباً ، فلما لم تمطره كفر برب السماء .

ولما خطط اليهود للشيوعية أرادوا أن يجعلوها نظرية علمية ، ومذهباً عقائدياً يقوم على أسس علمية كما يدعون ، وأن يجعلوا للمذهب « ايديولوجيات » تتميز بنمط من التفكير يمكنه التأثير في عالم كبير من الناس .

وبحث اليهود عمّن يصلح لهذه المهمة ، فوجدوا طِلبَتهم في كارل ماركس اليهودي الناقم على البشر ، الحاقد على الإنسانية ، فاستأجروه هو وصاحبه فردريك انجلز ، فألف الاثنان « المنفستو الشيوعي » أي البيان الشيوعي ، وألف ماركس « رأس المال » إنجيل الشيوعية ، كما ألف كل منهما كتباً أخرى .

وكل حياة ماركس تدل على جفاف العاطفة ونضوب قلبه من الرحمة حتى على أقرب الناس إليه ، على أمه وأخته اللتين أرهقهما بطلب المال مع شيخوخة أمه ومرض أخته .

وإذا كان المذهب الماركسي خِلْواً من كل مكارم الأخلاق فإن صاحب المذهب نفسه كان خلواً من كل مكارم الأخلاق ، ولذلك كان المذهب الماركسي انعكاساً لكارل ماركس واليهودية ، ماركس الذي خلا تاريخه من مكرمة إنسانية واحدة ، ولذلك كان مذهبه مثل صاحبه في الخلو من المكارم كلها .

وتلقاء هذا الخلو امتلأ المذهب بكل ما هو كفر بشع بخالق الخلق وبالخلق طراً وبكل القيم الإنسانية الرفيعة ، كما امتلأ بكل ضروب الشر المستطير .

ب - خروج العلم والعلماء على الكنيسة

يرجع خروج العلماء في أوروبا على الكنيسة الكاثوليكية ثم على الكنائس الأخرى الى اتصال العلماء الأوروبيين المسيحيين بالعرب المسلمين عن طريق التجارة والمجاورة والحروب ، إذ اطلعوا على ما لديهم من عقيدة وشريعة وحرية فكر ، واطلعوا على حث الإسلام على العلم ، وظهرت لهم القرابة بينهما ، وأنه لا خصومة بين دين الإسلام والعلم بكل صنوفه ، ورأوا الفوارق الكبيرة بينهم وبين علماء المسلمين ، فهؤلاء يفكرون تفكيراً حراً ، ومتقدمون حضارياً وعلمياً ، وهم - أي المسيحيين - متخلفون متأخرون .

وكان أعظم ما لفت أنظار العلماء المسيحيين الأوروبيين الفوارق الكبيرة بين الدينين والعقيدتين : الإسلامية والمسيحية ، وموقف كل منهما من الدنيا والجسد والمرأة والثروة ، وموقف كل منهما من العلم واحتكاره أو التسامح فيه ، وما بين أصحاب الديانتين من فرق شاسع في الحضارة والتقدم والحرية والتسامح .

أما عن الدنيا والجسد والمرأة والثروة فإن الإسلام لا يزوي عينه عن الدنيا ويعزف عنها ، ولا يرمي الجسد بالنجاسة الأبدية ، ولا يرى المرأة أحبولة الشيطان وأصل الشر ، ولا يتهم المال بأنه وسيلة الموبقات ، ولا ينظر إليه على أنه هو نفسه شر وبلاء ما دام مجموعاً من كسب طيب وكدّ حلال وجهد حسن ، وتؤدى زكاته فتجمع له كل أنواع الطهر إذا أنفقه في حلال .

وهذا على نقيض المسيحية أو الكنيسة الكاثوليكية التي انتهى كرادلتها وأساقفتها وبابواتها في مجالسهم المتعددة التي أجمعت على أن الدنيا ملعونة ؛ والجسد نجس نجاسة أبدية مطلقة لا يمكن أن يطهر ، والمرأة أحبولة الشيطان ، وملعونة لعنة سرمدية ، ونجسة ، وبلا روح ، وأن الثروة حرام مهما كان مصدرها ولو كان من حلال ، ولهذا جاء في أسفارهم المقدسة استحالة دخول الغني في ملكوت السماء إلا إذا أمكن للجمل أن ينفذ من سَمِّ الخياط .

وأما عن العلم والعلماء فقد رأوا الإسلام يرعاهما ويحث على العلم ، ويرفع العلماء الى أرقى المراتب ، ورأوا في الإسلام تسامحاً افتقدوه في المسيحية وبخاصة في كنيسة روما ، ورأوا أن حكومات الإسلام تعرف للعلماء قدرهم العظيم ، ولا تتدخل في شؤونهم العلمية إلا حين ترى مساعدتهم أو الإنفاق عليهم ، ولا يحجرون عليهم رأياً ، ولا يقفون في طريق العلم أو أبحاثهم العلمية .

ورأى علماء أوربا الإسلام يسمح للعلماء بحرية التفكير والرأي والبحث حتى تعددت آراؤهم في مسائل الدين والدنيا اختلافاً كبيراً ، ورعى الإسلام نفسه هذا الاختلاف حتى سماه رحمة ، لأن فيه سعة للمسلمين ، ولم يحمل خلاف العلماء أن يرمي بعضهم بعضاً بالزندقة أو الكفر ، بل كل منهم يحب الآخر ، ويجله ويرفع قدره وذكره .

ورأى العلماء المسيحيون مناهج البحث العلمي عند المسلمين ، تلك المناهج التي تفضي بهم الى الحقيقة في حين أن الكنيسة كانت تحرِّم مثل تلك المناهج ومثل تلك الأبحاث التي كان يبحثها علماء المسلمين بحرية وأمن واطمئنان تحت رعاية الإسلام نفسه الذي كفل لهم حقهم في البحث العلمي ، وحريتهم في إنشاء الرأي وإبدائه .

ما كانت الكنيسة لترضى عن ابتكارات العلماء ، وكانت « تصادر » كل رأي لم يجيء من القديسين والكرادلة ، ولا يقبلون آراء أرسطو وغيره من الفلاسفة إذا لم يجيء عن شارحيها من أقطاب المسيحية مثل توما الأكويني ، فإذا

لم تجيء الفلسفة عن طريق هؤلاء الكنسيين فهي مردودة .

ومعنى هذا أن الكنيسة تقبل ما يجيء عن ممثليها ، وإلا فهو مردود.

ولم يكن لعلماء أوروبا المسيحيين قوة تستطيع أن تقف في وجه الكنيسة التي تملك القوة كلها فكانوا ينتظرون الوقت الذي يجدون فيه الحرية والقوة لوقف بطش الكنيسة وسلطتها الغاشمة على العلم والعلماء الذين تذرعوا بالصبر مجبرين وهم يرون الإسلام حامياً للعلم والعلماء .

ونجم عن موقف الكنيسة العدائي من العلم عداء العلم للكنيسة دون أن يظهره مخافة بطشها ، فأضمر الحقد والعداء للكنيسة يتحين الفرصة ليضربها في صميمها ، وينزع عنها أردية القداسة والألوهية ، فلما خرجت أوروبا على الكنيسة بسبب تقدمها العلمي تنفّس العلماء الصُّعَداء وخرجوا على الكنيسة ، ومرقوا من دينها ، واستكبروا عليها حتى اضطرت الكنيسة الى رفع راية الفصل بين الدين والعلم ، وأن يُعْطَى ما لله لله وما لقيصر لقيصر ، ويستقل كل منهما عن الآخر في دولته .

وانطلق عفريت العلم من قمقمه الذي حبسته فيه الكنيسة لا يباليها ، فصدرت للفلاسفة والمفكرين المسيحيين كتب وبحوث خطيرة في نقد الكتب المقدسة لديهم ، كما نقدوا ما جاء فيها من الآراء والمعتقدات نقداً شديداً حتى أن بعض علماء المسيحية أنكروا وجود المسيح نفسه .

واتخذ علماء أوروبا مناهج العرب في البحث العلمي رجاء الوصول الى الحقائق العلمية ، ولم يمض عليهم غير يسير من الزمن حتى تقدمت علومهم تقدماً مذهلاً لم يكن في الحسبان ، فتقدمت علوم الطب والفلك والهندسة والفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعي وعلوم الحياة وغيرها ، وطفر العقل الأوربي طفرات واسعة فاق كل تقدير ، حتى بهر الناس جميعاً .

هنالك أخذ الأوربيون بهذا التقدم العلمي الذي أتاح لهم حياة لم تستطع الكنيسة في كل عصورها إتاحتها لهم ، بل كانت تحجر عليهم أيسر صنوف التقدم .

وطبيعي أن يكون الأوربيون مأخوذين بهذا التقدم الرائع الذي حققه لهم العلم ، شأن كل من يجد نفسه فجأة في مثل هذا الموقف الذي يبهر ، وظنوا المنهج العلمي أو العلم الحديث عليهم إلهاً جديداً هو وحده الذي يستحق التأليه والعبادة والتقديس .

وما دام المنهج ملخصاً في أن لكل ظاهرة سبباً فإن لسان حالهم يقول : لنكتف بالسبب ونتيجته ، ولنستغن عن خالق السبب والنتيجة إذا كان هذا الخالق هو رب الكنيسة التي تمثله في الحجر على العقل والعلم .

والواقع في نظرهم أثبت لهم أن العلم وحده هو الذي منحهم هذا التقدم الرائع الخطير ، فالعلم خالق ، وهو وحده الأهل للعبادة والتقديس كما يرون .

وبذلك مرق أكثر علمائهم في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من دين الكنيسة ، وذهبوا الى أن منجزاتهم العلمية الباهرة لا تدع لغير العلم مكاناً لإله أو روح أو غيرهما من الخرافات أو أساطير ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا ، لأن منجزاتهم العلمية حتمية تتلخص في السبب والنتيجة .

وهكذا أَهَلَّت علينا كلمة « الحتمية العلمية المنهجية » من وراء أفق الغرور العلمي الذي غشي بالدهشة رؤوس العلماء الأوربيين المسيحيين ، وأصابهم بالإلحاد والكفر بالقيم الروحية والدينية التي تعبر عنها أسفارهم المقدسة ، ولم يعد لديهم إيمان غير الإيمان بالعلم وحده.

وانتقال أوربا الى العلم ، واتخاذه بديلاً عن الدين كانا من أعظم الأسباب التي هيأت لمولد الشيوعية .

ج - الانقلاب الصّناعي

في مصادفة عجيبة وقع الإنسان على مصدر هائل من مصادر الطاقة ، وأمكن باستعماله أن يدير آلات كانت تدار من قبل بالطاقة المنبثقة من يد الإنسان .

وفارق كبير بين الطاقتين ، فمصدر الطاقة الجديد يزيد على مصدرها القديم مئات المرات ، واختصر الزمن في الانتاج الى حد مذهل ، فما ينتجه مجموعة كبيرة من العمال في آلاف الساعات تنتجه الآلة بمصدر الطاقة الجديد في سويعات ، فوفر الزمن والأجور ، وأعطى إنتاجاً هائلاً كثيراً يدر أرباحاً كثيرة .

وفي طليعة هذه الآلات : أنوال النسيج ومغازل الخيوط ، ونأخذها على سبيل المثال في إثبات الفارق بين القديم والحديث .

وكان حرياً بالإنسان بعد أن وقع على هذا السر من أسرار الطاقة أن يستمتع بهذا الكشف الهائل في تاريخ الحضارة الحديثة والإنسان الحديث ، فبعد أن كان يلبس ملابس معدودات صار يقتني أضعاف ما كان يلبسه من قبل ، وكثرة الإنتاج أرخصت الأسعار ، ومكنت العراة من اللبس ، وجعلت في الوسع أن يكثر الإنسان العادي ملابسه وينوعها في الكم والكيف واللون : وأن يقترب الفقير من الغني في المظهر حتى يعسر التفريق بينهما إذا كانا في الطريق أو مكان عام .

ولا شك أن مصدر الطاقة الجديد أتاح للإنسان العادي أن ينعم بمتع الحياة الكثيرة ، ووسّع نطاق الحصول على المنفعة والمتعة حتى شملتا المحرومين والكادحين ، فصار في وسعهم أن يشبعوا بعد أن كانوا يتمنون عيش الكفاف .

غير أن من امتلكوا مصادر الانتاج لم يكونوا من الناحية الإنسانية أهلا لهذا الامتلاك الذي أتاحه لهم الغنى فأخطأوا في حق إخوتهم بني الإنسان خطأ كان سبب كل مشاكل العالم وفتنه ، ولو كان هؤلاء الذين ملكوا مصادر الطاقة مؤمنين بالقيم الرفيعة لعاش الناس عامة وخاصة سعداء آمنين ، ولكنهم كانوا أنانيين فصارت النعمة مقرونة بالنقمة .

وكان من لوازم هذا الاكتشاف الهائل التغييرُ الشاملُ في الحياة نفسها ، فتحولت البساطة الى تعقيد ، والتواضع الى غرور وكبرياء ، وثقلت وطأة المادة على الروح ، وساد الطمع والجشع أصحاب رؤوس الأموال الأغنياء الذين ما كان يهمهم غير الربح والمزيد منه ليتحقق لهم المزيد من الثراء ، يريدون أكبر قدر من الربح بأقل قدر من النفقة ، واضطروا الى نقل الناس (اليد العاملة) من أماكنهم الى حيث مصادر الطاقة والإنتاج (المصانع) وتجمّع على صعيد واحد عشرات الآلاف من العمال بعد أن كانوا موزعين بين أحياء المدن .

وأدى الاضطرار أيضا الى بناء المصانع في أراضٍ شاسعة بعيدة عن المدن ، فتحولت القرى والأرياف الصغيرة الهادئة الوادعة الى مصانع تزدحم بالعمال حتى اتسعت رقاعها فصارت مدناً صناعية كبيرة أخذت تتضخم حتى صار سكانها يعدون بمئات الألوف وبالملايين .

وهذه نقلة كبرى في تاريخ الإنسان الأوربي من حياة سهلة قليلة المطالب الى حياة صاخبة معقدة كثيرة المطالب ، وأخذت المفاهيم والأخلاق تتغير تبعاً لهذه المفاجأة الكبيرة ، وأخذ صوت الوازع الديني والأخلاقي والاجتماعي والقانوني يخفت أو يختنق ، وجدّت أخلاق تتفق مع الحداثة التي نجمت من مصادر الطاقة الجديدة ، وتغيّر الانسان من جراء نشوء هذه المدن الصناعية الكبيرة الرهيبة المزدحمة بخلق كثير متفرقين في الأخلاق والنزعات .

ولو كان أرباب المال والصناعة يدينون بالقيم الدينية وكذلك العمال لنعموا بطيبات الحياة ، وبما أتاحه لهم اكتشاف الطاقة ، ولكن الجميع كانوا غير مؤمنين بالمثل الرفيعة ، فكانت الكارثة على الضمير والأخلاق مما نجم عنه من المشاكل والمتاعب والثورات ما زلزل قواعد الدين والأخلاق والعدالة الاجتماعية .

ونجد مصداق كل ذلك في تفصيلات وصفها كبار كتاب القرن التاسع عشر من أمثال بلزاك وشارل ديكنز وبلاسكو إبانيز وغيرهم وصفا آية في الدقة ، فقد صوروا آثار هذا الانقلاب الصناعي الهائل ، وأنذروا بمزيد من الشرور إذا لم يتلافوا الخطر الذي سيتفاقم على مر الأيام .

وهذه المدن الصناعية الكبرى الرهيبة المادية ، وأحوال المعيشة السيئة فيها ، وانهيار صروح العقيدة والأخلاق والقانون بين سكانها ، وكآبة العيش وسوء المنقلب ، وشيوع الفقر والبطالة والجريمة والرذيلة والتهتك الى آخر ما هنالك من الآفات هي التي تسببت في الثورات التي اجتاحت أوروبا في القرن الماضي سواء أكانت ثورات سليمة مجدية كثورة الإصلاح النيابي في انجلترا ـ برغم أنها لم تكن إصلاحاً صحيحاً ، وإنما كانت لمصلحة فئات خاصة في طليعتها اليهود ـ أم كانت ثورات دموية جائحة مثل الثورة الفرنسية سنة ١٨٤٧ م وسنة ١٨٤٨ م .

ومع أن الثورة الفرنسية كانت من تدبير اليهود ـ كما ظهر فيما بعد ثلث القرن العشرين من وثائق خطيرة ـ وذهب ضحيتها الشعب الفرنسي وقيمه فقد برز مصلحون وعاملون في ميدان الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي كأصحاب التعاونيات ، وأصحاب الفابية وغيرهم .

وبجانب هذا الاتجاه كانت الثورة الفرنسية سبباً في نشوء فكرة جديدة معتمة في رأس أجوف من رؤوس الفلاسفة الألمان مؤداها أن الإنسان مقسوم على نفسه أقساماً تتصارع وتتجادل على نحو ما يقرره منطق الجدل الهيجلي من أن الجماعة تفترض نقيضها لتصارعه وتجادله ، فينجم من التقاء المتجادلين تركيب جديد يجمعهما معاً ، لا يلبث أن يصير تقريراً يفترض لنفسه نقيضاً يجادله مُفْضِياً

به الى تركيب جديد ، وهكذا الى غير نهاية إلا في « المطلق » الذي يجمع كل تقرير وكل نقيض وكل تركيب .

وإنها لَفَلْسفةٌ ـ على كل ما صنع لها أنصارها من هالة وما أحدثوا من طنين ـ تذكرنا بقول كاسلرى رئيس الوزارة البريطانية في سنة ١٨١٥ عندما سمع بالحلف المقدس :

« قطعة من التصوف الرفيع الفارغ من المعنى ينطوي على لاشيء» .

A piece of sublime mystecism and nonsense and sounding nothing.

على كل حال كانت هذه الحالة ومعها هذه الفلسفة المصدر الذي نمت عليه فكرة صراع الطبقات التي تلقّفها ماركس ليجعلها أساساً من أسس مذهبه الهدام ، ومبدأ أساسياً من مبادئه التي ليس بها غير الصراع الشيطاني الرهيب .

د - سبات الشرق الإسلامي

فيما مر ذكرنا أهم العوامل أو الأسباب التي مهدت لظهور الشيوعية في أوروبا ، وبقي عامل مهم إلى حد بعيد لم يتنبه له أحد من الباحثين الذين اطلعت على ما كتبوا في الشيوعية ، وهو أن هذه الأحداث قد وقعت والشرق في سبات ، ولا سيما الشرق الإسلامي الذي أغفى .

ولم يكن سبات الشرق بعامة والشرق الإسلامي بخاصة ضربة لازب لا مفر له منها ، ولكن شاءت إرادة الله أن تتجمع الأحداث في أوروبا لميلاد الشيوعية والشرق غافل غارق في سباته مما عجل بهذا الميلاد ، وسرعة نمو الوليد الشيطاني ، وانتشار شره المستطير .

ويبدو لنا تأثير هذا العامل على أوضح ما يكون جلاء إذا تصورنا أن العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر كان في قوته وحيويته ونشاطه مثلما كان في القرن التاسع الميلادي يقود العالم بحضارته البناءة القائمة على أسس الحق والفضيلة والخير والجمال والصلاح التي أوجدها الإسلام دين الله الحق ، دين الإنسانية .

أكان يمكن لمذهب إلحادي هدام للدين والأخلاق وكل القيم الرفيعة أن يقوم وينتشر وتكون له دولة كبيرة إذا كان أهل الإسلام على وحدتهم وقوتهم ونشاطهم وقيادتهم لحضارة الإنسان ؟ .

أكان يمكن ليهودي أن يقول فيسمع ويطاع على الرغم من الخطأ والخطل والخلل والفساد والباطل والكفر في كل ما يقول ؟ .

ما كان أهل الإسلام ليتركوه ويَدَعوا دعوته الشريرة لتنجح نجاحاً كبيراً حتى تقوم له دولة ذات سيادة تعترف بها الدول ؟ .

أكان يمكن حدوث ذلك إذا كان أهل الاسلام على قوتهم الخيرّة مع أنهم أصحاب التسامح الأصلاء ؟ .

أكان التسامح الذي عرف به أهل الإسلام يحملهم على ترك هذا اليهودي ينشر مذهبه الخطر الهدام كما فعل الانجليز حينما تركوه يعمل في حرية بدعوى التسامح رياء ، لأن الإنجليز ليسوا بمتسامحين أصلا كما يفصح تاريخ استعمارهم .

إن للتسامح حدوداً ككل شيء سواه ، وإنما يعرف هذه الحدود من يحيون من التسامح في الصميم ، أولئك هم أهل الإسلام دون سواهم على الإطلاق والتعميم .

أما مُدَّعو التسامح والمراؤون به من أوروبيين وغير أوروبيين فهم قصار النظر ، ويغمّ عليهم الأمر ، ويحسبون التهاون تسامحاً فيُضَيِّعون ويَضِيعُون .

وهذا ما حدث للإنجليز وغيرهم من الشعوب الأوربية الذين لم يفطنوا الى خطر الشيوعية عندما كانت نظرية تعيش في عالم الفكر فكانوا ضحاياها على مر الأيام كما كان بعض شعوب أوروبا المسيحية أول ضحاياها .

لو كان أهل الإسلام ـ عندما ظهرت الشيوعية ـ يقودون حضارة الإنسان لما أتيح لمذهب الشيطان أن يحيا وتكون له دولة تزداد قوة على مر السنين حتى تكون دولة عملاقة .

ولقد ظهر في الوجود الانساني إبان قوة الإسلام أناس مثل كارل ماركس ، وكان لهم عند ظهورهم أتباع وقوة ، فانبرى لهم ولمذاهبهم الهدامة الإسلام ، وقاومها حتى قضى عليها ، وخلّص الإنسانية من شرورها ، ولو لم يكن الإسلام قوياً لكان خطر تلك المذاهب مثل خطر الشيوعية .

ولكن سبات الشرق الإسلامي هو الذي أدى الفرصة للماركسية أن تحيا آمنة ، وتعمل بحرية ، وتنتشر في أوروبا لتسود وتصبح قوة عظمى تهدد العالم كله .

وطبيعي أن تنجح الماركسية في أوروبا للفراغ الروحي المسيطر عليها ، وللإلحاد الذي نجم من العوامل التي ذكرناها ، ولسبات الشرق الإسلامي ، ولو أن الشرق الإسلامي كان في عصر ميلاد الشيوعية وظهورها ونشأتها مثلما كان قبل عشرة قرون من ظهورها لما استطاعت أن تتنفّس ، ولقضى الإسلام عليها كما قضى على غيرها من مذاهب الهدم والتخريب .

الشيوعية نظرية سياسية
ومُوازنة مقتضبة بينها وبين الإسلام

يفترض في كل نظرية سياسية أن تكون الأساس الفكري للكيان الاجتماعي كله ، وللحياة الانسانية كما خلقها الله وتصوّرت في فكر هذا المفكر أو ذاك ، ومن هنا ـ وبطريق المنهج التحليلي ـ تتقرر الأنظمة ، وتتقرر الحقوق والواجبات ، وتتقرر أسس العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، والعلاقة بين الناس بعضهم مع بعض ، سواء أكانوا فرادى أم كانوا منتظمين في منظمات ومؤسسات وهيئات. . . الخ.

ولقد أخذ العصر الحديث باصطلاح سمى به هذا الضرب من التفكير ، وهو « الايديولوجي » .

وكلمة أيديولوجي Ideology هذه تتكون في لغاتها الأوروبية من مقطعين ، أحدهما : لوجي Logy ويراد به العلم ، وهو المقطع الذي يتكرر في كثير من أسماء العلوم مثل : جيولوجي ، وسيكولوجي ، وفسيولوجي التي تعني علم طبقات الأرض ، وعلم النفس ، وعلم وظائف الأعضاء على ترتيب ما ذكرنا .

أما المقطع أيديا Ideo فمعناه « الفكرة » أو « المثال » ومعنى المصطلح « علم الأفكار » ولكن المصطلحات لا تخضع للمعاجم ، وشاء المصطلح أن يعبر بهذه الكلمة عن « الفكرة المثالية الفلسفية الكامنة وراء كل تنظيم اجتماعي يصدر عنها بمؤسساته وعلاقاته وأهدافه ووسائله » .

وفي معجم « المورد »[1] : الأيديولوجي : أ ـ المناصر أو المشايع لنظام (أو معتقد) أيديولجي معين . ب ـ واضع النظريات . الحالم (وضع النظريات بطريقة حالمة أو غير عملية) .

وفي المورد أيضاً : أ ـ مجموعة نظامية من المفاهيم في موضوع الحياة أو الثقافة البشرية . ب ـ طريقة (أو محتوى) التفكير المعبر لفرد أو جماعة أو ثقافة . ج ـ النظريات والأهداف المتكاملة التي تشكل قوام برنامج سياسي اجتماعي .

والأيديولوجية مصطلح متشعب الدلالة ، ولكنها بصورة عامة « نمط من التفكير الاجتماعي يشمل مضمونه عناصر منهجية يقصد منها التأثير في النشاط السياسي لهيئة كبيرة من الناس »[2] .

ولعله كان من الأنسب في تفسير المقطعين اللذين أشرنا إليهما أن يكون معناهما « علم الأفكار » مع أن المصطلحات غير خاضعة للمعاجم خضوعاً تاماً ، إذ لا يمكن تعريفها تعريفاً جامعاً مانعاً بحيث يتمُّ حصر المعنى الذي يحتويه المصطلح ، ولهذا نجد اختلاف المفسرين فيما بينهم في تفسيره .

ونحن نؤيد ما جاء في معجم « المورد » أو ما يعبر عنه بأن الأيديولوجية هي « الفكرة المثالية الفلسفية الكامنة وراء كل تنظيم اجتماعي ينبثق منها بمؤسساته وعلاقاته وأهدافه ووسائله » .

بهذا أصبح عندنا في العصر الحديث نوعان من المجتمع ، أحدهما مجتمع مكون من أناس يعيشون كيفما اتفق ، والآخر مجتمع يقوم على أساس مذهبي ، وهذا ما يسمى الأيديولوجية .

ويجب ألاّ تفوتنا الاشارة الى أن الأيديولوجي غير مقصور على النظام السياسي وحده ، بل يشمل كل ما في المجتمع ، فهو أساس منظماته ومؤسساته

(١) تأليف منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٧ م.
(٢) المصطلحات السياسية ، صفحة ٣٢ طبع بيروت.

التي تُعدُّ من قبيل أحجاره وأخشابه وسائر مواد بنائه ، وهو أساس علاقات كل ذلك فيما بينه وبين بعضه ، وهو الأساس في تحديد أهدافه ومراميه ووسائله المقبولة التي يتوسل بها ، ووسائله المفروضة عليه من خارجه الى آخر ما ينبثق عنه .

ولقد اختلفت الأيديولوجيات باختلاف الفلاسفة الاجتماعيين والسياسيين وباختلاف المجتمعات بين قديم وحديث ، وبين شرقي وغربي ، وبين مجتمع مُوَجَّه وآخر حر ، وبين مجتمع متدين ومجتمع غير متدين أو آخذ من الدين بأوهى الأسباب .

وليس المجال هنا مناسباً لبسط القول في هذه المذاهب ـ ولا إيراد أسمائها وعناوينها ـ ولمن شاء الاطلاعُ ـ مثلاً ـ على « جمهورية أفلاطون » أو « السياسة » لأرسطو ، أو فلسفة توماس هوبز، وجون لوك ، وجان جاك روسو وما كتبه كارل كوتسكي ، وفكتور أولبر ، وأنطونيو لابريولا ، ولينين وعشرات غيرهم من الفلاسفة والمفكرين ليعرف شيئاً واضحاً عن هذه « المذهبية » في تفسير المجتمع الإنساني ونظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وما إليها .

وتقتضينا المناسبة أن نذكر أن الإسلام يتفرد بين كل ديانات السماء والأرض ومذاهب الاجتماع بسمات نفتقدها فيها ، فالإسلام دين الإنسانية والأخلاق وطهارة النفس وكل الجوارح والحواس والعدالة والحق والخير والفضيلة والجمال ، الدين الذي يساوي بين الحاكم والمحكوم ، والغني والفقير في الحقوق والواجبات ، ويساوي بين الجميع في فرائض التكليف والعبادات ، ولا يميز فرداً عن فرد إلا بقدر ما يفعل الخير لنفسه ولمجتمعه وللإنسانية .

وإذا ترامت الأفكار والنزعات بين المفكرين عن أساس الاجتماع الإنساني ، وهل هو فطرة وغريزة ، أو هو عقد اجتماعي بين متكافئين ، أو عقد اجتماعي « يتنازل » فيه المتعاقدون عن حقوقهم وإنسانيتهم لرجل ليس طرفاً في العقد ، أو هو مجرد طريقة وجد أصحابها فيها ما يحقق لهم الأمن ويضمنه لهم فإن كل ذلك ليس بغامض على الإسلام الذي جاء الى البشرية بخير شريعة تضمن للإنسان إنسانيته وقيمه الرفيعة وحياته الفاضلة وحقوقه وحريته .

إن أساس الاجتماع في الإسلام قائم على الأخلاق الكريمة الفاضلة ، وقد جاء بالأسس والأصول موجزة ومفصَّلة ، وترك الباب مفتوحاً أمام المفكرين الصالحين ليجتهدوا ويقيسوا ما يَجِدُّ من أمور الحياة مما لم يكن للسلف عهد به ، حتى يستوعب الإسلام كل شيء في المجتمع على اختلاف الزمان والمكان .

وأصول التشريع في الإسلام : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس ، وهناك أصول أخرى أضافها فقهاء الإسلام الى الأصول الأربعة .

والإجماع والقياس وغيرهما من الأصول المضافة إليهما تجعل باب الاجتهاد مفتوحاً الى الأبد ، وبذلك يكون الإسلام قادراً على الحكم ، مستوعباً لكل جديد ، صالحاً لكل زمان ومجتمع في أي مكان من الأرض .

وليس واقع المسلمين في هذا العصر حجة على الإسلام الذي لا يحكم به إلا في المملكة العربية السعودية ، وتحكيم الإسلام فيها برهان على صلاحه للحكم في هذا الزمان وفي كل زمان .

ونسوق دليلاً أعظم على صلاح الإسلام للحكم في كل زمان ومكان ولكل شعب مهما كان متأخراً أو متقدماً ، وأيّاً كانت لغته وجنسه ووطنه ونصيبه من العلم والحضارة والتقدم .

ومعروف أن الإسلام كان يحكم أمة الإسلام عندما كان تعداد أفرادها بضعة آلاف ثم عشرات الآلاف ثم مئاتها ثم بالملايين ، وعندما كانت رقعة الإسلام ضيقة محدودة لا تتجاوز المدينة المنورة ثم اتسعت رقعتها لتشمل الحجاز ، ولم يكن الإسلام ليتجاوز العرب في الحجاز واليمن ونجد ، ثم أخذت رقعته تتسع اتساعاً عظيماً حتى شملت جزيرة العرب ومصر وفارس وتركيا وشمال أفريقيا والهند .

وكانت فارس والروم أكبر أمتين عملاقتين على ظهر الأرض ، وكانتا مع الهند ومصر أعظم أمم الأرض علماً وحضارة وثقافة ، فلما دخلت في الإسلام حكمها وحكم غيرها من الأمم المختلفة ، وجعل الجميع أمة واحدة تحتكم

للإسلام في كل شيء ، وصار العالم القديم كله عالة على الإسلام في علومه وفنونه وآدابه وثقافاته وحضارته .

فإذا صلح الإسلام لحكم الأمم الكثيرة المختلفة فيما مضى فهو صالح لأن يحكم في هذا العصر وكل عصر .

وإبقاء الإسلام باب الاجتهاد مفتوحاً برهان على خصبه وحيويته وبقائه وصلاحه لكل زمان ومكان ولكل شعب .

والإسلام يمكّن الناس من مواجهة أحوالهم المختلفة وظروفهم المتطورة بما يناسبها دون جمود أو تعطيل ، لأنه يساير الحياة ولا يتخلى عنها ، بل هو الذي يكسب الحياة روحها ونظامها ووجودها .

ومهما ضاقت الدائرة أو اتسعت فقدرة الإسلام تسعها ، فإذا ضاقت بحيث لا تتسع الدائرة لغير الأسرة أو العشيرة أو القبيلة أو الشعب أو اتسعت لتشمل شعوباً وقبائل تبلغ المئات أو الألوف فإن الإسلام يتسع لهم جميعاً كما تتسع الشمس لأمم الأرض طراً ، يتسع لهم جميعاً دون تمييز ، لأن لكل فرد وجماعة ومجتمع الحق في الحياة العزيزة الكريمة .

يقول الخالق جل جلاله :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

و﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ .

والأمة ـ كما يجب أن نفهمها ـ هم جماعة من الناس يرجعون إلى منشأ واحد ، ويسيرون في طريق واحد ، من أجل تحقيق غاية واحدة .

وهذه الأمة في مفهوم الإسلام لا ترجع إلى عرق أو دم ، لأن الإسلام ينكر

العصبية إنكاراً شديداً ، وجاء لمحوها ، وإنما ترجع الى الإسلام ، فهو نسبها كما قال الشاعر المسلم نهَار بن تَوْسِعة :

أبِي الإسلامُ لا أبَ لي سواهُ إذا افتخروا بقيسٍ أو تميمِ

فالإسلام هو المصدر والمنشأ ، ولا فخر لدم على دم أو عرق على عرق ، وإن « الخير » الذي يراد به التفضيل في الآية الكريمة قائم على المعاني الطيبة والأعمال الصالحة : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والإيمان بالله ، وليس لغير ذلك فضل .

ولا شك أن الله اختار النبي العربي محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام لرسالة الإنسانية ، ونهض معه العرب لتبليغ الرسالة لأنهم كانوا لذلك أهلاً دون الناس جميعاً ، وهذا الامتياز الذي امتازوا به لم يكن بسبب العرق أو الدم ، بل بسبب الإسلام الذين آمنوا به ونشروه ، حتى صعد إلى أعلى قمة في الإسلام عبيد من الحبشة وفارس والروم ، فكان بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي فوق ذوي النسب الأرفع .

وحيث ارتفع الإسلام بهؤلاء العبيد الأجانب هبط ذوو العرق النقي والدم الزكي والنسب الرفيع كأبي لهب وأبي جهل وأمية بن خلف السادة المبجلين .

ارتفع أولئك العبيد بالإسلام الى أعلى ذروة منه ، وهبط العرب السادة بالشرك إلى أسفل درك في الدنيا والآخرة .

وعندما اتسعت دائرة الإسلام حتى شملت شعوباً كثيرة تكوّنَ من مجموعها « أمة » الإسلام ، منشؤها واحد ، وطريقها واحد ، وهدفها واحد .

ومع أن جذور الآباء وأصول الأجداد مختلفة ، والألسنة متعددة ، والأوطان متغايرة فإن كل هذا الاختلاف في الأصول واللغات والأوطان والألوان وفي درجات الثقافة والحضارة والعلم لم يكن سبباً للشتات ، بل كان الإسلام سبباً لجمع الشتات حتى ضمن التماسك والترابط والتضامن والوحدة ، وقد مثّل

لذلك رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام فقال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً ، وشَبَك بين أصابعه » .

وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام « يدُ الله مع الجماعة » و« يد الله على الجماعة » .

وعندما يقرر الإسلام وحدة الأمة فإنه يقرر شخصية الفرد وكيانه ومسئوليته ، فالله عز وجل يقول في كتابه العزيز :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ و﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾

و﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾

و﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

فالإسلام لا يلغي شخصية الفرد ليذيبها في الجماعة ، بل يقرر ضرورة وحدة الأمة بحيث يكون كل فرد في مكانه منها ليتم البنيان الاجتماعي ، على أن لكل فرد حقه وكيانه ، فهو حر حرية لا يتجاوز بها على حرية غيره ، ومستقل استقلالاً تاماً ، والقاعدة الإسلامية في الحرية والاستقلال وفي كل شيء كما قال محمد ﷺ : « لا ضَرَرَ ولا ضِرار » لا يضر نفسه ، ولا يضر غيره .

الإنسان في الإسلام أيّاً كان معتقده حر ، وحقه في الحياة والعيش مضمون ، وعرضه وماله مضمونان ، ودمه معصوم إلا إذا عمل عملاً من شأنه العقاب فهناك يفقِد من ماله وعرضه وحقه بقدر ما انتهك .

والناس جميعاً سواء ، فقد قرر رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام المساواة بين الناس فقال : « الناس سواسية كأسنان المشط » وقال : « أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمَر على أسودَ ، ولا أسودَ على أحمرَ إلا بالتقوى » .

فالإسلام يقرر المساواة ، وينفي التفاضل بين الناس ، ولكنه من الجانب

الآخر يثبت التفاضل ، هو ينفيه بسبب الألوان والمناصب والسعة ، ويثبته بالتقوى .

المساواة حق ، وما ثَمَّ لأحد فضل إلا بما يُقدم من أعمال صالحة تنفع الناس ، فمن ينفعهم بجهد أو علم أو مال فهو ذو الفضل .

وليس مفهوم المساواة أن يكون كل الناس سواء في المنازل والأقدار ، ولا المساواة في المطالب والأرزاق ، بل المقصود من المساواة تساوي الناس في نظر الشرع والقانون ، حقهم في الحياة واحد ، وكلهم سواء في الفرائض والأحكام والعبادات ، الصلوات خمس على كل الناس ، وأداؤها فرض عليهم جميعاً .

ويأتي الفضل المقرر في الإسلام لمن كان أتقى ، ومن كان أنشط عملاً وأكثر إنتاجاً فهو أوسع رزقاً ، ومن كان أعلم ووهب علمه للناس فهو أكثر نفعاً وأعظم أجراً ، ومن كان كسولاً خاملاً فهو حيث وضع نفسه من المهانة والحاجة والفقر .

وهكذا يظهر أن اللون والنسب والحزب والمنصب وما إلى ذلك من فروق اجتماعية مصنوعة لا ترتب لصاحبها فضلاً لا يكون لغيره من الأفراد ، إنما يأتيه الفضل والتعظيم من الفروق التي ترجع إلى امتيازه بالعلم والجهد والحركة والنشاط والبذل فيما ينفع الناس .

وكل ذلك من التقوى ، لأن معناها واسع يشمل كل ما ينفع صاحبها والناس نفعاً حلالاً طيباً .

تلك هي الأسس الرئيسة ، وفيما وراء ذلك لا حرج على الأمة أن تنفق على ما تشاء كنوع الإنتاج مثلا بين زراعي وصناعي ، وكمبدأ التوزيع مثلا بين أن يوزع الإنتاج بين الأفراد لكل حسب إنتاجه أو حسب حاجته ، أو لكل منهم قدْر متساوٍ مع الآخرين بغض النظر عن الحاجة والإنتاج .

لا حرج على الأمة عمل شيء من ذلك إذا كانت النية حسنة والقصد طيباً والوسيلة والغاية سليمتين .

ويجب أن يكون مفهوماً أن أي عمل صالح ولو كان زهيداً مثل إماطة الأذى عن الطريق يعد في الإسلام من القربات التي يثاب عليها .

ذلك شأن الإسلام ، ولم يكن مثل ذلك شأن غيره ، فقد ترك أتباع الديانات الأخرى بلا هداية في هذا السبيل ، والمسيحية تدين أتباعها بأن ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، فكان لا بد من البحث في « ما لقيصر » من بداية الأساس الى نهاية التفصيلات .

من هنا كثر الفكر السياسي في أوربا ، ولا سيما في عصر النهضة وما تلاه من أجيال حتى كانت الشيوعية في القرن التاسع عشر كالذي رأيناه آنفاً .

وخلاصة الفكر الشيوعي ها هنا هي أن الناس ليسوا أفراداً ، وإنما هم طبقات ، ولا عبرة بوجود الفرد ، ولا كيان للفرد ، إنما الكيان للطبقة .

وتتحدد الطبقات بنوع الإنتاج الذي تمارسه ، وعندئذ ينقسم المجتمع حتماً الى مُسْتَغِل ومستَغَلّ ظالم ومظلوم ، لأن الذي يملك الانتاج لا بد أن يظلم العامل في الإنتاج . حتماً حتماً حتماً بغير محيد ولا محيص ولا مناص ولا مفر الى آخر اللاءات التي تثبت الحتمية التي لا بديل لها ولا استثناء فيها .

عندئذ يبدأ الصراع بين الطبقات الكادحة والطبقات المُستَغِلة ، ولكنه يكون في بدايته صراعاً غير متكافىء ، لنقص الوعي عند الكادحين ، ولتضافر قوى المُستغِلين الظالمين المتحكمين ذوي السلطة الغاشمة ضد الكادحين ، وتخديرهم عن حقوقهم بالدين ونعيم الآخرة طوراً ، وطوراً بالوطنية والنخوة القومية ، وطوراً آخر ببهجة السعادة الأسرية وزينة الحياة الدنيا من بنين وبنات .

كل هذه الأشياء أفيون لتخدير الجماهير الكادحة حتى تنام عن واقعها الأليم ، وترضى بالنعيم الموعود .

ومن المقرر الثابت المؤكد أن الشيوعية لا ترى الدين وحده أفيوناً للشعوب وإن كان الدين عندها أشد أنواع الأفيون فتكاً بالجماهير الكادحة ، بل عند

الشيوعية :

الدين أفيون الشعوب .

والوطنية والقومية أو الوطن أفيون الشعوب .

والأسرة أفيون الشعوب .

كل ذلك أفيون تُخَدِّر به الطبقات المُستَغِلةُ الظالمةُ الطبقاتِ الكادحةَ المُستغَلَةَ المظلومة لتنام عن حقوقها فلا تطالب بها أملاً منها في الآخرة حيث تجزى الفردوس الموعود .

فإذا سئل الشيوعيون : لِمَ كان هؤلاء مظلومين وأولئك ظالمين ؟ أجابوا : الأساس في هذا الظلم هو معنى « القيمة » وأن مرجع القيمة عمل الانسان أو عمل العامل المبذول في القيمة أو إنشاء القيمة ، وما دام الأمر كذلك ـ وهو كذلك على اليقين والتأكيد عندهم ـ فالقيمة جميعها حق العامل ، فكل ما أُخِذَ من ثمن السلعة وحُرِمَ منه العامل وأُعْطِيَه صاحب العمل فذلك هو الظلم والاستغلال .

ونرجىء القول في هذا الجانب قليلاً الى موضعه لننصرف الى السياسة في نظر الشيوعية .

يقول إمام الشيوعية ماركس : « إن في المجتمع طبقتين متنازعتين ، لا يمكن أن يجري بينهما غير القتال الطبقي الذي يبلغ ذروته في الثورة »[1] .

وما أن يحتدم القتال بين الطبقات حتى يكون النصر للطبقة التي هي أدنى على الطبقة التي هي أعلى ، الى أن ينتهي القتال بالانتصار المبين في النهاية للطبقة الدنيا التي ليس وراءها طبقة .

وفي أثناء هذا الصراع الطويل يكون المجتمع منظماً قائماً على أساس الحكومات التي أنشأتها الطبقة المُستغلةِ الظالمة التي تتحكم في الحكام والحكومة

---

(١) الماركسية بعد ماركس « تأليف بيار ومونيك فافر » ، ترجمة نسيم نصر ، منشورات عويدات ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٤ .

وفي نظامها وتشريعها ودستورها وقانونها ومؤسساتها .

والمرحلة الأخيرة في هذا الصراع الطبقي انتصار الطبقة الدنيا الكادحة ، وحينئذ تنشأ حكومة منهم تمثل الطبقة كلها ، وترعى مصالحها بضمان حقوقها وتصفية الإقطاع ، وتحطيم الرأسمالية ، وتذويب فوارق الطبقات .

فإذا ما تحقق هذا الشيء المنشود ـ وهو متحقق حتماً لأن كل ما تقرره الشيوعية واقع حتماً ولا محالة كما تعتقد ـ ونشأ المجتمع الانساني ذو الطبقة الواحدة ينتج كل فرد فيه ما يستطيعه ، ويأخذ كل فرد ما يحتاج اليه ؛ لا ملكية ، ولا طبقية ، ولا أفيون ، ولا فوارق ، لأن وسائل الإنتاج ليست ملكاً لأحد ، والثروة ليست ملكاً لأحد ، والأرض ليست ملكاً لأحد ، كل فرد ينتج ما يستطيع ، ويأخذ ما هو بحاجة إليه .

وعندما يتم الوصول إلى هذه المرحلة لا تكون حاجة المجتمع الى حكومة ، وحينئذ تنحل الحكومة وتتلاشى بطبيعة الحال ، لأنه لا حاجة إليها ، ولا فائدة من وجودها ، لأنه لا وظيفة لها ولا عمل ، ويكون كل الناس سواء ، لا أسرة ، ولا ميراث ، ولا دين ، ولا مؤسسات دينية ، ولا قومية ، ولا مؤسسات قومية ، ولا أخلاق اجتماعية .

في كتاب « الماركسية بعد ماركس » تأليف بيار ومونيك فافر[1] : « والدولة ـ كما حللها ماركس ـ هي أداة سيطرة طبقة على أخرى بواسطة جهاز قمع مؤلف من عسكريين ورجال بوليس وموظفي إدارة ، وهكذا نرى أن الدولة التي تسمي ذاتها ديمقراطية لا تستخدم إلا للحفاظ على تفوق طبقة أقلية ـ هي البرجوازية ـ على أكثرية الشعب الساحقة ، أي البروليتاريا ، ولذلك طلع العمل الثوري معبراً عن إرادة الكادحين المصممة على تأسيس دولةٍ لا طبقيةَ فيها ، لكي تزول الدولة ، وهذا الانحطاط المؤذن بالزوال سيتحقق عند نهاية ازدهار اقتصادي هائل ، ويجري تحقيقه على وجهين أساسيين : الوجه السفلي للمجتمع

(١) الترجمة العربية ، المرجع السابق نفسه .

الاشتراكي هو حيث يكون الانتاج ما يزال غير كاف ، والدولة البروليتارية يجب أن تراقب بدقة وشدة على كل واحد واستهلاكه ، أما الوجه الثاني العلوي الذي هو ـ حقاً ـ اشتراكي فيتوفر فيما بعد عندما يتأمن « توسع القوى المنتجة توسعاً عجيباً » وعندئذ تحين ساعة الحرية ، ساعة لا يبقى من مبرر لوجود الدولة» .

وهكذا يعيش الناس بلا طبقات ، لأن كل الطبقات ستزول وتَمَّحي في طبقة البروليتاريا التي ستذوب فيها كل تلك الطبقات .

هذه حتمية من الحتميات الشيوعية التي دونها حتمية القدر عند المؤمنين به ، فكل « حتمية » شيوعية واقعةٌ حتماً لا مفر منها ، فقيام طبقة واحدة في المجتمع « حتمية » من الحتميات ، وكذلك زوال الحكومة زوالاً نهائياً « حتمية » لا مفر منها .

هذه هي الشيوعية التي تحُوِّل الناس الى ما لا يمكن أن أسميه حياة السائمة ، لأن السائمة الحيوانية أكثر ترابطاً من مجتمع الطبقة الواحدة الماركسي الشيوعي ، بل يتحول الناس الى آلات تحركها أصابع الشيوعية .

وهذا حلم شرير مستحيل التحقيق ولو جزمت الشيوعية بأنه متحقق حتماً ولا مستحيل في وهمها دون أن تتحقق كهانة واحدة من كهانات الماركسية خلال ستين عاماً من قيام دولة الماركسية ، جاهلة أن الناس لا تفقد غرائزهم التي لا يمكن محوها بمرسوم شيوعي .

الحكومة ـ إذن ـ مرحلة الى زوال محتوم .

والحكومة ـ إذن ـ سلاح من أسلحة الطبقات الرأسمالية والإقطاعية في صراعها ضد الطبقات الكادحة .

ثم هي بعد ذلك سلاح من أسلحة الطبقة الكادحة ضد الطبقات الرأسمالية والاقطاعية تصفّيها بها بعد انتصارها المحتوم الذي هو « حتمية » ككل ما تقرر الشيوعية .

ثم هي بعد ذلك كيان بلا كائن ، لأنه لا وظيفة له ، ولا معنى لبقائه بعد

زوال وظيفته ومعناه ، وحينئذ يكون من الحتم المحتوم أن تنحل الحكومة وتتلاشى في المِلّينيوم Millinium[1] المراد به عودة الناس الى العيش بدون طبقات[2] .

وإذا تأملنا النظرية بدقة ، وبحثنا فيها عن العدل فاننا لا نجد له مكاناً بها ، كما لا نجد بها مكاناً للحق والحرية والمثل الرفيعة .

كان الإنسان منذ القدم مقتنعاً بأن « العدل أساس الملك » وليس المقصود بالملك النظام الملكي ، وإنما المقصود به الحكم أو الحكومة أيا كان نظامها سواء أكان خلافة أم ملكاً أم جمهورياً يحكم رئيس الجمهورية أم غير ذلك .

القصد أن يكون الحكم مبنياً على أساس العدل ، فهل لهذا الأساس وجود في نظرية الحكومة الشيوعية ؟ .

لا مكان للعدل ولا وجود لمعنى العدل في مؤسسة هي في لب لبابها وفي واقعها سلاح في صراع رهيب .

إن الصراع الطبقي حرب فناء وإفناء ، وليس منافسة رياضية يلتزم

---

(١) هكذا كتبها الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد في كتابه « الشيوعية والانسانية » وفي معجم « المورد » الطبعة الكبيرة سنة ١٩٦٧ دار العلم للملايين ، بيروت ، تأليف منير البعلبكي كتبت هكذا: Millennium.

(٢) في كتاب العقاد « الشيوعية والانسانية » الطبعة الأولى سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦م) القاهرة، ص ١٠٩ : « هناك خرافة النعيم الألفي Millinium التي امتلأت بها الأساطير الاسرائيلية العتيقة، ولم يفلت « كارل ماركس » من أوهامها على الرغم من صيحاته باسم العلم أو صيحاته على أفيون الشعوب : أفيون الأديان .

« النعيم الألفي خرافة إسرائيلية تقول لشعب الله المختار : إن العالم سيخرب بعد ألفي سنة ، ثم يخرج من في القبور من أبناء اسرائيل فيعمرونه في نعيم مقيم لا تبديل فيه ولا تأخير ولا تقديم. هذا النعيم الألفي هو ميراث اليهودي « كارل ماركس » من أساطير قومه ، وله ميراث آخر من عاداتهم وتقاليدهم وإن لم يكن من الخرافات أو النبوءات ؛ ميراثه الآخر هو تقديس الفلوس » .

وفي معجم « المورد » : Millennium العصر الألفي السعيد . فترة سعادة أو عدالة مطلقة أو تحرر من نقائص الوجود البشري .

المتنافسان فيها بقواعد اللعبة ولوائح اتحاد الرياضة المبنية على العدل والحق .

وما دامت الحكومة سلاحاً في صراع ضارٍ رهيب لا آخر له إلا فناء أحد الخصمين فطبيعي ألا يكون في دستورها مكان ولا معنى للحقوق والواجبات ، وإذن ، فلا مكان للعدل .

بهذا يكون « أساس الملك » أو « الحكم » متلاشياً عَدَماً من الكيان السياسي في الشيوعية ، ولا بقاء لبنيان لا أساس له .

تلك هي النظرية .

ونحب أن نوازن بينها وبين نظرية الإسلام ، كما نوازن بينها وبين الواقع الشيوعي في بلاده ، وفي خارج بلاده لنرى مدى إمكان تطبيق هذه الأحلام .

وليس من مهمتنا عقد موازنة تتناول الجزئيات والكليات بتفصيل يستوعبها ، لأن ذلك يحتاج الى مجال وسيع ، ولكنّ فيما نوجزه إيجازاً غير مخل غناءاً عن الإسهاب والتفصيل وفاءًا لما نحن بصدده .

الإسلام لا يرى أن الحكومة سلاح مدمر في صراع ملتهب لا يهدأ إلا بفناء أحد الخصمين ، ولا أن المجتمع الإنساني يمكن أن يكون فوضى بغير حكومة لا في هذا الزمان ولا في أي زمان قادم وتحت أي ظرف حقيقي أو مُتَوَهَّم ، بل يرى ضرورة وجود حكومة ولو في رفقة متناهية في الضآلة والصغر ، فـ « أيُّما معشرٍ زيد على ثلاثة فليؤمِّروا عليهم » وقد تواتر عن رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام قوله : « إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمِّروا أحدهم » فإذا زاد العدد عن ثلاثة إلى ثلاثين أو إلى ثلاثمائة أو أكثر كان التأمير أشد ضرورة .

كما تواترت السنة المحمدية في توجيه الجيوش أن يجعل على الجيش أميراً ، ويجعل للأمير خليفة ، ولخليفة الأمير خليفة ، ثم يوصي الجميع بأن يختاروا من بينهم على حسب الواقع أميراً إذا أصيب أو قتل الأمراء الثلاثة جميعاً .

وهذا إمعان في استمرار وجود مرجع يتولى تصريف أمر الجماعة ضماناً للعدل والضبط والسلامة وحسن الصحبة وتماسك الرفقة .

ومن مأثورات سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : « ابغوني رجلاً إذا كان بين القوم وهو أميرهم فكأنه واحد منهم ، وإذا كان بين القوم وهو واحد منهم حسبته أميرهم استعمله » .

ومن شروط الحاكم في الإسلام أن يكون لمن يحكمهم قدوة في الصلاح والتقوى والنزاهة والعدل .

ومن الحكم المتفق عليها بين المسلمين قول شاعرهم الأفوه الأودي :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراةَ إذا جُهَّالهم سادوا

فالإسلام والشيوعية نقيضان متدابران في أمر المجتمع الذي له حكومة هي سلاح في صراع طبقي ، أو لا حكومة له ، فأي النقيضين على الحق؟ .

لقد وعدنا أن نكون « موضوعيين » في بحثنا ، وإذن ، ليس لنا أن « نصادر » النتيجة على المطلوب ، بل ننظر في الأمر بشخصية القاضي العادل الذي لا يهمه غير الحق في أي جانب كان ، أكان في الجانب الذي هو منه أم كان في الجانب الذي يبغضه ، فلا دخل للعاطفة في القضاء والحق .

على سبيل المثال أو الشاهد الذي يشهد للقاعدة بصحتها نضرب المثال بمجتمعات لا طبقية ، ولن تكون طبقية ، وليس بها وسائل إنتاج لكي تتكون فيها الطبقات المتصارعة كمجتمع النحل ومجتمع النمل وسائر أنواع الطيور ، وأنواع الحيوان التي تتجمع في قطعان .

أي مجتمع من هذه المجتمعات التي يعيش أفرادها على الفطرة والغريزة ليس فيه حاكم ومحكوم ؟ .

إن القيادة ظاهرة عضوية في بعض هذه المجتمعات كالنحل مثلا .

إذن ، فمجتمع بلا حكومة ـ وهو المجتمع الذي تعمل الشيوعية على إيجاده في مرحلتها الأخيرة ـ خطأ بيولوجي ، وليس خطأ موضوعياً وحسب .

تلك هي قضية مجتمع بلا حكومة .

وأما قضية الحكومة التي هي سلاح في يد طبقة من الطبقات تستعمله في صراعها ضد الطبقات الأخرى سواء أكانت طبقة رأس المال أو الاستغلال أم كانت طبقة الكادحين ، أي سواء أكانت الحكومة للضغط والإرهاب تمكيناً للمستغلين والاستغلال ، أم كانت الحكومة لتصفية الاستغلال والمستغلين لصالح طبقة الكادحين فذلك رأي يرفضه واقع القيم والأخلاق ، لأن كون الحكومة سلاحاً في يد طبقة في حرب فناء يفقدها العدل الذي هو أساسها ، وحينئذ تكون حكومة ظلم واستبداد .

وهذا شيء ترفضه طبيعة الإنسان بصرف النظر عن الدين ، فنحن نرى البدائيين يقيمون لهم حاكماً أو حكومة ليست سلاحاً في يد طبقة ضد طبقة أخرى .

وهذا برهان على أن نظرة الشيوعية إلى الحكومة نظرة غير طبيعية ، فهي مرفوضة ، ولهذا نرى الشيوعية تفرض مذهبها على المجتمع بالحديد والنار والبطش والارهاب .

أما الإسلام فهو يرفض النظرة الشيوعية الى الحكومة جملة وتفصيلاً ، لأن الشيوعية مذهب مجرد من كل قوانين الضمير والأخلاق ، وخال خلواً تاماً من كل القيم الإنسانية الرفيعة .

ومن البداهة أن يرفض الإسلام دينُ الإنسانية والأخلاق والقيم الرفيعة مذهبَ الشيوعية الذي جاء لهدم الأديان والأخلاق والقيم والإنسانية .

وننتهي من هذا إلى أن الإسلام حق كله ، وصواب كله ، وخير كله ، والشيوعية مجموعة من أبطل الباطل وأخطأ الخطأ ، وأفظع الشر ، وخطر على الإنسان وإنسانيته ودينه وقيمه وأخلاقه ومجتمعه ووجوده وحياته .

وليس هناك مجال للموازنة والمقارنة بين الإسلام والشيوعية إلا الموازنة والمقارنة بين الأضداد ، إظهاراً لمزايا نقيض وإثباتاً لمفاسد نقيض ، مثل المقابلة

بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والإيمان والإلحاد .

وما قيمة مذهب ينشىء الحكومة لتكون سلاحاً للتدمير والإبادة ، مذهب مجرد من الرحمة حتى على المخلصين للمذهب الذي لا مكان في معتقده لغير الحرب والقتال الدائمين حتى تنتصر الطبقة التي هي منها .

ما قيمة مذهب ليس فيه مكان للخير والحب والرحمة والغفران والصلاح ؟ .

أما الإسلام فدين الرحمة والمحبة والسلام والخير والإنسانية ، حتى فيما هو قسوة وشدة يتوخى الرحمة ، وما ثم عقوبة أشد من القتل ، وما ثَم عمل أشد من الذبح ، ومع ذلك أمر الإسلام بالإحسان فيهما ، إذ قال رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام : « إذا قتلتم فأحسنوا القتلة » و« إذا ذبحتم فأحسنوا الذّبحة » .

فإذا حكم على امرىء بالإعدام وجب الابتعاد عن تعذيبه ، وكذلك إذا أريد ذبح حيوان وجب أن تكون الشفرة حادة ، والذابح خبيراً ماهراً ، لئلا يتعذب الحيوان .

هذا في العقوبة وفي ذبح الحيوان ، فكيف معاملة الناس ؟ .

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ .

فالحكومة في الإسلام غيرها في الشيوعية بخاصة ، وغيرها في كل الديانات ومذاهب الاجتماع .

كان رسول الله محمد ﷺ يشترط في « الحاكم » أن يكون الأفضل في الخلائق والصفات ، وفي قمتها الرحمة .

يقول محمد ﷺ : « أيما رجل استعمل رجلاً على عشرة أنفس علم أن

في العشرة أفضل ممن استعمل فقد غشَّ الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين ».

والصلاة في الإسلام أعظم فرائضه ، فهي عمود الدين كما قال رسول الله ﷺ ، اشترط على الإمام أن يكون محبوباً من المأمومين ، وما يحب الناس إلا السهل السمح الطيب ، أما إذا كان مكروهاً فيجب عليه ألا يؤمّ كارهيه .

يقول رسول الله ﷺ : « أيما رجل أمّ قوماً وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه ».

ولا يرضى الإسلام من الحاكم أن يكون متسلطاً جباراً ، أو يستغل منصبه في غير العدل والإحسان ، وقصة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع عمرو بن العاص حاكم مصر حينما صفع ابنه قبطياً مصرياً من العامة مشهورة ، إذ صفعه وقال له : « خذها وأنا ابن الأكرمين » فرفع المضروب أمره الى عمر ، فأحضر الحاكمَ وابنهُ من مصر الى المدينة ، وحكم للقبطي قائلاً : « اضربْ ابن الأكرمين » قالها عمر في مقام الهزء والسخرية ، فصفع القبطي ابن حاكم مصر المسلم .

والإسلام لا يفرق في الحق بين مسلم وغير مسلم ، صاحب الحق أحق ، وبعد أخْذ عمر حق القبطي قال للحاكم عمرو بن العاص وابنه : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ».

هذا حكم الإسلام نطق به ابن الخطاب فكان الحكم شرفاً للإنسانية كلها تحفظها في ضميرها ، وترددها على تعاقب الأيام والأجيال .

وحادثة علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته فاطمة الزهراء شرف عظيم للإنسانية تحفظها في ضميرها ، وتنقلها من جيل إلى جيل على مر الأيام والأجيال .

فقد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه درعه ، ووجدها بيد يهودي ، فلم ينتزعها منه بقوة شرفه وحكمه إذ كان الحاكم ، بل رفع أمره الى

قاضيه قاضي المسلمين ، فأجلس الحاكم علياً واليهودي في مكان واحد وقال : يا أبا الحسن ، خذ مكانك بجانب خصمك ، ثم طلب البينة من علي الحاكم الصدوق ، فلم تكن لديه بينة يثبت بها دعواه ، فحكم لليهودي ، لأن الثوب للابسه ، والدابة لراكبها ، والدرع لمن هي معه وعليه حتى يثبت المدعي غير ذلك .

ورضي الحاكم بقضاء قاضيه عليه وأخذ عليه أنه ميزه على خصمه (اليهودي) إذ ناداه بكنيته ، والكنية تعظيم وتمييز ، ولا يصح في مجلس القضاء الإسلامي تمييز أحد الخصمين ولو كان الخليفة نفسه .

وهنا حكمان وليسا بحكم واحد ، الحكم الأول في مصلحة اليهودي ضد حاكم المسلمين جميعاً ، والحكم الآخر حكم أمير المؤمنين على نفسه ، إذ لم يرض بتمييزه بكنيته على خصمه.

وتكملة القصة أن اليهودي لم يملك نفسه من الاعجاب بحكم الإسلام إلا أن يقول : أشهد ألاّ إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

وسبب إسلام اليهودي عدل قاضي المسلمين ، وحكمه على خليفة المسلمين علي بن أبي طالب ، لأنه لم يملك البينة التي يثبت بها دعواه ، وحكم علي رضي الله عنه على نفسه ، إذْ لم يرض بتمييزه .

واعترف اليهودي أن الدرع لعلي كانت على دابته فسرقها منه ، وأعادها إلى علي ، فما كان منه إلا أن وهبها له .

هذه حادثة لا يمكن وقوعها في الشيوعية ولا في غيرها من المذاهب والديانات .

وهي مسؤولية الحاكم في الإسلام ، وتقوم فيه على العدل والإحسان والأمانة والأخلاق الفاضلة .

يقول رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام :

« كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، الإمام[1] راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في مال زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته » البخاري ومسلم .

وقال ﷺ : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم . ويصلون عليكم وتصلون عليهم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم » رواه مسلم .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم من وَلِيَ من أمر أمتي شيئاً فشَقَّ عليهم فاشقُقْ عليه ، ومن وليَ من أمر أمتي شيئاً فرفَق بهم فارفُقْ به » رواه مسلم .

فالحاكم في الإسلام يجب أن يكون قدوة في الأخلاق الفاضلة والصلاح والتقوى ، رحيماً شفيقاً رفيقاً ، يجتذب قلوب المحكومين بعدله بينهم وحبه إياهم .

والمحكومون في الإسلام مسؤولون عن حاكمهم مسؤولية حاكمهم عنهم ، يعينونه بالسمع والطاعة والعمل الصالح .

وختام المسك في هذه الشواهد ما جاء عن الله في كتابه العزيز قوله الحق :

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾[1] .

وقال تعالى في فرعون مثلاً في الحاكم الظلوم الجبار :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى

(١) الإمام هو الحاكم سواء أكان خليفة أم ملكاً أم رئيس جمهورية « أم غيرهم » .
(١) النساء : ٥٨ .

﴿ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝ ﴾ (١).

والحكومة والحكام في شرع الإسلام أداة للسلام الاجتماعي ، وتنظيم المعاملات ، وإقامة العدل ، وأمن الناس من الخوف والجوع ، وتأمين الطريق والأموال ، وحماية الحرية ، وحراسة المجتمع ، وحفظ الحقوق ، وعصمة الدماء إلا فيما أوجب الله ، وبث الهداية والمحبة ، ونشر الدعوة البناءة الخيرة ، وإحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، وذلك بعد توحيد الله وصرف العبادة له وحده .

هذه هي حكومة الإسلام ، وهي الحكومة المثلى الفضلى ، وليست الحكومة التي هي سلاح للقتل والإبادة والتدمير في يد إحدى الطبقات المتصارعة التي لا وجود لغير الشر والباطل والعدوان والحرب في كتابها الشيطاني .

وتكون الحكومة طبقية ظالمة حين تكون فاسدة مفسدة مثل حكومة فرعون الذي علا واستكبر وطغى وظلم وبغى ، وجعل رعيته شيعاً وطبقات يذل بعضها بعضاً ، وبعضها ذو قوة وخطر وخطوة وغنى ونفوذ عنده ، وبعضها مستضعفة مضطهدة مسلوبة الحقوق والحريات .

والشيوعية أشد خطراً على الإنسانية من هذه الفرعونية ، هي فرعونية وزيادة ليس بعدها مزيد من الشر والظلم والكفر والإلحاد لمستزيد .

فأي النظرتين أو التصورين للحكومة هو الأصح الأمثل ؟ تصور الشيوعية ونظريتها في الحكومة أم نظرية الإسلام وتصوره ؟ .

إن الشيوعية ـ كما مر ـ لا ترى في الحكومة إلا سلاحاً في يد طبقة هي في صراع رهيب دائم مع طبقة أخرى ، سواء أكانت طبقة المستَغِلين ذوي الثورة والإقطاع أم كانت طبقة الكادحين المستَغَلين .

---

(١) القصص : ٤ ـ ٦ .

أما الإسلام فيقيم الحكومة من أجل النظام والتنظيم والبناء والعدل والأمن والسلام والخير والحب والتعمير .

ومجرد وضع السؤال يفصح عن الإجابة ، وهي أن الحكومة الصالحة هي حكومة الإسلام المثلى ، وأما حكومة ماركس وأشياعه : حكومة الشيوعية هي الحكومة السفلى ، لأنها حكومة اجتثاث الإنسانية وتراثها الصالح من الجذور لتبقى السيطرة في يد الحكومة التي هي سلاح للقتل والتدمير والإبادة حتى تتم لها السيطرة والتفرد ، فلا يكون في الوجود غير الطبقة الواحدة ، وحينئذ لا ضرورة لقيام حكومة ، إذ لا ضرورة إليها .

هذا ما تصل بنا إليه الدراسة الموضوعية بعد الموازنة بين الشيوعية والإسلام ، ونعود الآن للموازنة بين النظرية والتطبيق عند الشيوعيين أنفسهم ، ونسارع فنقول : إننا نفترض أن الحكومات التي تتسمى باسم الشيوعية هي تطبيق فعلي وعملي للنظرية الشيوعية كما يزعمون ، مع أننا ممن يعلمون عن يقين أن هذا غير الواقع الثابت ، فالحكومات التي تتسمى باسم الشيوعية ليست تطبيقاً عملياً لنظرية ماركس وإنجلز ثم لينين أو أي واحد من أتباعهم الشياطين .

فالحكومة الشيوعية في نظر ماركس وليدة صراع طبقي بلغ أقصى مداه ثم يخمد الصراع بطريقة حتمية في شكل الحكومة الشيوعية التي تكون مقدمة لانحلال كل حكومة شيوعية ، لأن المجتمع الشيوعي الأمثل يصبح في غير حاجة إلى حكومة ، وتلك ضرورة حتمية كما يدّعون .

بينما الواقع المشهود الذي نراه أن الصراع الطبقي هو الذي يحدث نتيجة قيام حكومة تتسمى الحكومة الشيوعية .

والصراع الطبقي في النظرية لا يتم ويبلغ مداه إلا في الدول الصناعية ، وعلى الدول الزراعية أن تنتظر حتى تتطور في الأطوار الحتمية للتاريخ ، ولا أمل لها في الشيوعية إلا بعد بلوغ أقصى درجات الرأسمالية الصناعية كما هي الحال في إنجلترا وفرنسا وألمانيا .

كان من تكهنات ماركس الحتمية الوقوع كما يدعي أن الشيوعية تولد وتحيا وتسود في الدول الصناعية .

وكلمة « حتمية الوقوع » من لوازم الماركسية ، فكل ما تدعيه حتمي الصواب ، وكل ما تتكهن به حتمي الوقوع لا محالة ، فهي تتكهن بأن الشيوعية توجد حتماً في الدول الصناعية الكبرى مثل إنجلترا وفرنسا وألمانيا ، ونفى ماركس قيام الشيوعية في الدول الزراعية والدول المتخلفة .

وكذّب الواقع النظرية الماركسية وكهانة ماركس ، فلم يكن للشيوعية وجود في الدول الصناعية الكبرى ، فلم تحكم في إنجلترا وفرنسا وألمانيا حتى اليوم ، أما ألمانيا الشرقية الشيوعية فما كانت شيوعية إلا بسبب احتلال الشيوعية القسم الشرقي من ألمانيا ، ولولا هذا الاحتلال ما كان شيوعياً .

لم تقم الشيوعية إلا في الدول المتخلفة سواء أكانت زراعية أم غير زراعية ، وبعد قيام الشيوعية بدأت الصناعة تدخل المجتمعات التي سيطرت عليها .

وليس وجود الصناعة وازدهارها في المجتمعات التي سيطرت عليها الشيوعية منقبة من مناقبها ، بل كان ذلك من ضرورات التطور ، والاستعداد للحرب الحتمية بين الشيوعية وغيرها .

ومع ذلك لم تكن الصناعة في الدول الشيوعية بأجود وأكثر إتقاناً وروعة في الدول الصناعية في أوروبا وأمريكا ، فصناعة السيارات ـ على سبيل المثال ـ في الدول الرأسمالية أكثر دقة وإتقاناً وروعة وجمالاً منها في روسيا الشيوعية .

وضربنا المثل بصناعة السيارات لأنها أكثر دلالة وشيوعاً وإثباتاً من غيرها لدى الناس ، إذ هي على مشهد منهم ليل نهار ، فهم يستطيعون إدراك ذلك والتمييز بين الصناعتين .

وقررت الشيوعية قراراً حتمياً بأن الشيوعية لا تقوم في أوطان ، بل لا وطن لها ولا قومية ، لأنها فوق الوطنيات والقوميات ، ولأن الشيوعية أممية عالمية ، ولا

حدود إقليمية لها، بل لا تقوم الشيوعية إلا بعد تفتح الوعي الطبقي وبلوغه أرفع ذروته وذلك حين يشعر العمال الكادحون في العالم كله بالوحدة الطبقية والمصلحية والصراعية ، وحين يعيد الناس تنظيم معسكرات الصراع فيما بينهم على الأسس الشيوعية ، أي معسكرات طبقية بعد أن كانت على عهد لويس الرابع عشر ونابليون وولنجتون وأشباههم تنتظم في معسكرات قومية ، يتكون المعسكر الواحد من كل الطبقات التي يتكون منها هي نفسها المعسكر المقابل .

فالحرب الكبرى الأولى بين ألمانيا ودول الحلفاء ثم الثانية بين ألمانيا والحلفاء كانت حرباً بين معسكرين متشابهين ، صراعاً بين الوطنيات والقوميات .

ولكن الصراع بين الشيوعية والرأسمالية صراع بين مذهب لا وطني ولا قومي وبين معسكر وطني قومي ، لأن المعسكر الرأسمالي يضم أفراداً من جميع الطبقات لمصلحة طبقة صغير محدودة هي طبقة الرأسماليين والإقطاعيين المستَغِلّين .

أما المعسكر الشيوعي فمعسكر الطبقة الواحدة : طبقة الكادحين من العمال والفلاحين الذين هم عمال أيضاً، إذ هم أجراء الأرض عند الإقطاعيين .

وعندما يتحد عمال أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا وأستراليا في معسكر واحد،وينهضون صفاً واحداً من أجل فكرة واحدة ضد الرأسماليين والإقطاعيين المستَغِلين في قارات الدنيا يمكن ـ حينئذ ـ للدولة الشيوعية العالمية أن تقوم ، وهذا ما يجب أن يكون ، وسيكون ذلك حتماً لا مفر منه كما يدعون .

وكلمة « يا عمال العالم اتحدوا » هي كلمة ماركس الذي ختم بها « المانفستو » أي « البيان الشيوعي » الذي كتبه ماركس وإنجلز ، وها هي ذي كلمته مترجمة إلى العربية : « يا عمال العالم ، اتحدوا ، فلن تخسروا باتحادكم غير السلاسل والأغلال ، وأمامكم عالم تكسبونه » .

والواقع الفعلي أن هذا التضامن والاتحاد الطبقي « لعمال العالم » لم يقع

في الماضي ، منذ صدور البيان الشيوعي ، ولا منذ قيام الدولة الشيوعية في روسيا سنة ١٩١٧ حتى اليوم ، ولن يقع في المستقبل أيضاً ، فهذا التضامن ـ فضلاً عن الاتحاد ـ لم يقع في الدول الشيوعية نفسها ، فها هم أولاء عمال الاتحاد السوفييتي الشيوعي وعمال الصين الشيوعية وعمال ألمانيا وعمال كوبا وغيرها من الدول الشيوعية لم يتحدوا في دولة واحدة ومعسكر واحد ، بل هم في صراع مع الرفاق الشيوعيين بعضهم مع بعض تبعاً لحكامهم المتصارعين بعضهم مع بعض .

إن هذا الاتحاد الذي دعا إليه ماركس والشيوعيون التابعون له من بعده لم يتحقق في الدول الشيوعية نفسها ، ولن يتحقق في يوم من الأيام في الحاضر والمستقبل ، لأنه مناقض لطبيعة الحياة الإنسانية ، وما ناقضها لا مجال لوجوده .

وواقع هذه الحكومات الشيوعية المصبوغ بصبغة الماركسية مخالف كل المخالفة للنظرية الماركسية .

مع كل هذا ومع غيره من براهين الواقع نفترض جدلاً أن هذه الحكومات التي تتسمى باسم الشيوعية هي بالفعل تطبيق للنظرية الماركسية .

فهل التطبيق مصداق للظن النظري ؟ وهل هو مما يفاء إليه ويستراح إلى ظله ؟ .

لا نريد أن نصدر أحكاماً على الشيوعية من عند أنفسنا ، ولئلا نتهم بالهوى والغرض ومجانبة العدل والصواب نأخذ الواقع الفعلي للمذهب الماركسي نظرياً وتطبيقاً بطريقة موضوعية علمية محايدة تتصف بالنزاهة في الحكم والتفسير ، ونجعل الواقع نفسه قاضياً يصدر الحكم ، وواقع الشيوعية غير متهم في الحكم إذا حكم عليها .

أول ما نستقرئه من واقع الشيوعية أن الشيوعية فشلت في جمع الشيوعيين على طريق واحد أو طريقة واحدة ، فالشيوعيات القائمة اليوم شيع ومذاهب وفرق متباينة متباعدة متناقضة متعادية لا يكاد يحصرها عدد ، بل صارت من

كثرتها غير خاضعة لأن يشملها اسم واحد إلا في العنوان العام الذي يأتي تحته عشرات الأبواب أو مئات انفصول والأبواب مما لا يتفق في الحقيقة والواقع مع العنوان العام .

وصار من أصعب الصعاب على الشيوعيات القائمة المتشعبة إلى شيع وفرق ومذاهب متناقضة متصارعة أن تعرف أو تندرج تحت عناوين علمية أو فلسفية ، فصارت تعرف بأسماء أفراد من زعماء الشيوعية كاللينينية والتروتسكي والستالينية والخروشوفية والتيتوية والماوية والتولياتية والجيرودية إلى غيرها من مئات النسب إلى أسماء أصحابها .

ومفهوم أن اللينينية نسبة إلى لينين ، والتروتسكية إلى تروتسكي ، والستالينية إلى ستالين ، والخروشوفية إلى خروشوف ، والتيتوية إلى تيتو ، والماوية إلى ماوتسي تونج ، والتولياتية إلى تولياتي ، والجيرودية إلى جيرود .

وإن سخرية القدر لتبلغ بالماركسية مدى لم يبلغه مذهب ، وما أظن مذهباً غيره سيبلغه في المستقبل فصار هذا المذهب الماركسي الذي يلغي الفردية إلغاء جملة واحدة ويعتبر الفرد عدماً أو كياناً لا معنى له إلا في سياق الطبقة ، وذلك عندما يمحوه من وجوده محواً تاماً ليذيبه في المجموع .

هذا المذهب الذي يقوم على إلغاء الفردية ومحو الفرد لا يعرف إلا باسم صاحبه ماركس الفرد ، كما يعرف بأسماء الأفراد كلينين وستالين وتروتسكي وتيتو وخروشوف وماوتسي تونج وتولياتي وجيرود إلى مئات الأسماء والأفراد .

وفي حالة من الفردية المغالى فيها غلواً تنتهي المبالغة بها إلى حد النقيض .

وتلك سبة للمذهب الذي يلغي الفرد يطلقها عليه أتباع المذهب قبل غيرهم من أعدائه ومناوئيه .

والاستقراء الثاني الذي نستقرئه فتقرئنا إياه الشيوعيات القائمة اليوم هو أن الخلافات بينها ليست على أساس اختلاف الرأي والتفسير والاجتهاد ، وإنما هي اختلافات نجمت على أسس قومية وجنسية كانت معهودة منذ القدم ، ومدونة

على صفحات التاريخ .

فروسيا والصين وما بينهما اليوم ليس بالجديد ، وما بين روسيا وتركيا ، أو بين روسيا وأمم الشمال أو أمم وسط أوروبا وسواحل البحر الأسود وشبه جزيرة البلقان معروف ومذكور ومُدوَّن في صفحات التاريخ ، وحسبنا بهذا دليلاً على أن الشيوعية مذهب غير قابل للتطبيق ، لأن أغلب ما ذكرنا من هذه الدول تدين بالشيوعية وتخلص في تنفيذها ، فإذا كان قصارى ما تحدثه الشيوعية من تغيير هو أن تحول الحرب بين روسيا وجيرانها من عنوان « الوطنية الروسية » و« الجنسية السلافية » على عهد القياصرة إلى عنوان « المذهبية الشيوعية » على عهد قياصرة الكرملين الحاليين بدون أن تغير من الحرب نفسها وفئات المتقاتلين فيها فليس ثمة فشل أشد من هذا ، وليس ثمة دليل على عدم « قابلية » التطبيق من هذا الدليل .

فالشيوعية تدعي أنه لا قومية ولا وطنية ، وإنما عالمية ، لأن المذهب الماركسي ينكر الأوطان والقوميات كما ينكر الديانات ، ويدعو إلى وحدة العالم دون اعتراف بالحدود الإقليمية وحواجز الأوطان .

العالم كله عند الشيوعية وطن واحد ، هذا ما تدعيه وتعمل له ، ولكن الواقع الذي لا ينكر ولا يجحد ولا يغالب يثبت نقيض ما تزعمه الشيوعية ، فأكبر رأس فيها في الحرب العظمى الثانية وهو ستالين عندما هزمت جيوشُ هتلر جيوشَ الشيوعية في الاتحاد السوفييتي أدرك ستالين أن إثارة النخوة القومية والحماسة الوطنية ضرورة في الحرب فأثارهما في خطبه .

فأتباع الماركسية يكذّبون بأفعالهم ما يزعمونه بألسنتهم ، ويكفي دليلاً على كذب دعاواهم أن الاتحاد السوفييتي الذي يمثل التطبيق الواقعي للمذهب حتى صار الممثل الأكبر النموذج الذي له قيادة الشيوعية في العالم هو نفسه لم يستطع محو أسماء الأوطان وحدودها ، فنظام الاتحاد السوفييتي يعترف بجمهورياته واسم كل جمهورية ، وكذلك غيره من الدول الشيوعية ، ثم وجود أسماء الأوطان التي سيطرت عليها الشيوعية ما تزال محتفظة بهذه الأسماء .

والاستقراء الثالث أن أسباب الخلاف ليست اقتصادية بحتة كما تزعم الشيوعية أن الاقتصاد هو القيمة الوحيدة التي لها تأثير على الإنسان ، وأن ما عداها مما يسمى « قيماً » ليس في حقيقته إلا مُخَدِّراً يستعمله المستغلون الرأسماليون ليخدِّروا به الكادحين ، فلا الوطن ، ولا الأسرة ، ولا الدين ، ولا النسب الرفيع العريق بذوات قيمة حقيقية أكثر من أنها سلاح في أيدي الرأسماليين .

فهذا خلاف لا يقوم على أساس اقتصادي ، فيرى البعض أنه راجع إلى التنافس الفردي ، ومحاولة إقرار المجد الشخصي للزعماء في البلدين (الاتحاد السوفييتي والصين) ويرى آخرون أن مردَّ الخلاف بين العملاقين الشيوعيين هو التنافس على التوسع وابتلاع الدويلات المحصورة بين البلدين ، ويرى غير هؤلاء وهؤلاء أن المرجع الأصيل هو أن الجنس الأصفر لا يستطيع التعامل والوفاق مع الجنس السلافي .

ويرى غير هؤلاء غير الآراء التي مرت ، وليس من يرى منهم ولا من غيرهم أن مرجع الخلاف اقتصادي .

وإذن ، فالمجد الشخصي ، والزهو القومي ، والفخر الوطني ، والانتماء إلى الأصول والأعراق قيم تؤثر في السلوك ، وتعلو في تأثيرها على القيمة الاقتصادية المتفردة عند الشيوعيين بالقيمة بغير شريك ، وهذا كاف للدلالة على خطأ المذهب بحكم التطبيق .

ولا ندع الاستقراء الثالث دون أن نستوفي ما يحمل من أدلة فنقول : وحتى على فرض أن الخلاف بين البلدين العملاقين هو في أصله الأصيل اقتصادي ، فما الذي يعنيه هذا الخلاف؟ وما سببه ؟ أهو الاقتصاد ؟ . أليس زعم الشيوعية أن « التناقض » من سمات المجتمع المتعدد الطبقات ، لأنه لا تناقض بين عمال هذا البلد وذاك ؟ إذن ، فما الذي يأتي بالخلاف الاقتصادي بين مجتمع الطبقة العمالية الواحدة الوحيدة في الاتحاد السوفييتي ونظيره في الصين ؟ .

من أين يأتي الخلاف أو ينشأ التناقض مع أن التناقض لا يوجد نظرياً إلا بين من ينتجون ومن يملكون وسائل الإنتاج ، وأن التناقض يزول ويمّحي حين

تملك الطبقة المنتجة كل وسائل الإنتاج ؟ .

إن الاتحاد السوفييتي ـ كما يدعي ـ مجتمع الطبقة الواحدة : طبقة العمال والفلاحين والجنود ، وكذلك دعوى القوم في الصين ، والنظام الاقتصادي فيهما واحد ، فأين الاقتصاد الذي يختلفان بسببه ؟ .

أليس كيان المذهب قائماً كما ذكر أقطابه على زوال التناقض حتماً بزوال أسبابه وامحاء مصدره ؟ بلى ، إذن ، فلماذا يكون هذا الخلاف مع زوال المصادر والأسباب .

إنه سنة الوجود التي لا تستطيع معها الشيوعية أن تصدر حكماً فتغير سنن الوجود وقوانينه من أجل خاطرها .

إن مجرد وجود الخلاف أو التناقض أو قوعه بين مجتمعين شيوعيين متماثلين حتى ولو كان اقتصادياً برهان قاطع على خطأ النظرية يكشفه التطبيق .

ونكتفي بهذه الاستقراءات الثلاثة لكي نتجنب الخوض في السياسات الداخلية لهذه الدول وخططها الخمسية أو العشرية ، وإنفاقها على السلاح بغير حساب ، واستعمار الدويلات الصغيرة المجاورة بقوة الجيوش ، وقمع الشعوب والعمال لأتفه الأسباب بالدبابات والمصفحات ، والنظر إلى أحوال الطبقة الكادحة المنتجة التي تدعي الشيوعية أنها قامت لحمايتها وسيادتها ورغدها وحريتها وأمنها والتي ما تزال كادحة بعد ستين سنة من قيام دولتها وتبشيرها بانتهاء عهد الكدح والعناء والكرب وما إلى ذلك .

نكتفي بها لأن فيما ذكرنا الغناء للدلالة على أن التطبيق الشيوعي قد أثبت أن النظرية خطأ من أساسها، وخطأ في كيانها ، وخطأ في بنيانها .

وأن الذي لا يحسن اكتشاف الخطأ النظري بالنظر العقلي يمكنه الاقتناع بدليل التطبيق ، وها هو ذا الدليل الذي يقدمه على الدوام تطبيق النظرية صارخاً في العالم : إن الشيوعية خطأ وشر وفساد وكفر .

إن التناقض الصارخ بين النظرية والواقع لا يمكن لأحد أن يتجاهله فإذا

تجاهله أو جهله رجل الشارع أو الجماهير فما ذلك إلا لعدم علمهم بهذه الحقيقة ، أما المفكر والواعي وطالب السياسة علماً ، وممارسها وظيفة وعملاً ، وأساتذة الجامعات في الحقوق والسياسة والاقتصاد والتجارة وغيرها وغيرهم من ذوي القيم والأخلاق والديانات ومستقيمي الطبع وسليمي الذوق فليس بإمكان أحد منهم بأي شكل من الأشكال قبول نظرية الشيوعية في السياسة وفي غير السياسة بعد ثبوت خطأ الشيوعية في النظرية والتطبيق .

الشيوعية نظام اقتصادي

كثير من الناس يظنون الشيوعية نظرية اقتصادية أو نظاماً اقتصادياً ، وهو خطأ ، لأن الشيوعية مذهب اجتماعي ينصَبُّ همه على فلسفة التاريخ والتطور الاجتماعي للانسان .

والذي أضل هؤلاء الناس وأوقع في أخلادهم أنه نظام اقتصادي هو ما أخذ المذهب به نفسه ، والتفسير الذي جاء به لفلسفة التاريخ وتطور الانسان .

كان كارل ماركس يحب أن يتصف بالمنهجية العلمية ، لأن العلم زي العصر ، ولذلك كان يعيب أصحاب مذاهب الإصلاح بأنهم « حالمون » .

وكان كارل ماركس يعتقد أن الصفة الرئيسة في المنهج العلمي هي « الحتمية » فالسبب يوجد النتيجة حتماً بغير نزاع ، إذن ، كلما وجد السبب وجدت النتيجة وكلما وجدت النتيجة فإن مما لا نزاع فيه أن يكون هناك سبب قد سبقها .

وكان كارل ماركس يظن فلسفته التي تقسم المجتمع الى طبقات ، والتي تعتقد في الديالكتيك المستعار من « هيجل » والتي تؤمن بالتطور على أساس الصراع بين هذه الطبقات ، وأن هذا الصراع هو سبب التطور الحتمي ، فإذا حدث صراع حدث تطور ، وما دام هناك تطور فثمة صراع قد حدث ، كان يظن فلسفته قاعدة علمية مثل القاعدة التي تقول : « إذا ارتفعت حرارة هذه القطعة

من الحديد تمددت ، وإذا وجدت قطعة حديد متمددة فلا بد أن حرارة قد ارتفعت » .

كان كارل ماركس يظن أن فلسفته هذه قاعدة علمية لا نظرية اجتماعية ولا مذهباً في تغيير المجتمع تغييراً يراه إصلاحاً وما هو إلا الفساد المحض .

فلما ألزم نفسه بشيء ليس يلزمها وجد أن الأمر يقتضيه مزيداً من البحث .

لماذا يحدث الصراع ؟ .

وكيف تتحدد الطبقات ويتميز بعضها عن بعض ؟ .

يسأل ماركس نفسه السؤال الأول : لماذا يحدث الصراع ؟ لأن المنهج العلمي يقول : إن السبب في ظاهرة ما هو نفسه نتيجة سبب سبقها ، فارتفاع الحرارة في المثل السابق هو نفسه ظاهرة رجعها العلم الى سبب سابق عليها كارتفاع الشمس أو انفجار بركان أو مجرد تعرض قطعة الحديد لنار مشتعلة .

ويسأل نفسه السؤال الثاني لأن تحديد الطبقات التي تتصارع ضرورة علمية منهجية كالذي فعله يوم حدد معنى المادة التي يدرسها ليبني على ذلك مفهومه المحدد للسبب ومتى يكون مادياً ومتى يكون غيبياً أو خرافياً على حد ما يزعم هو ويزعمه أصحابه .

وكالذي فعله طول حياته بحكم يهوديته العريقة ، فعل هذه المرة خليطاً كمن جمع عنب « بوردو » على بطاطس « مرسيليا » وخطف خطفة من هنا ، ونهش نهشة من هناك ، ونهب نهبة من مكان آخر ، ثم جمع هذا الخليط بغير نظام في مجموعة واحدة ظنها كياناً واحداً لا خليطاً من أشياء لا يرتبط بعضه ببعض بسبب[1] .

---

(١) كلمة «سبب» هنا بالمعنى العربي الأصيل لا المعنى المنهجي ، ومعناها العربي هو الصحيح لغة ، وهو الصحيح علما ، إذ معناها الأصيل : الصلة ، أو الحبل الذي يصل شيئين بعضهما ببعض ، أما المعنى الآخر وهو أنه « الموجد الذي يوجد شيئاً آخر » فخطأ علمي واقعي وإن انتسب الى العلم ومنهجه .

هذا ما فعله إمام الشيوعية كارل ماركس ، أخذ من أبحاث « ريكاردو » في القيمة شيئاً ، ومن أبحاث « جيفونز » في الدورة التجارية ، ومن أبحاث النفعيين ، ومن أبحاث الأقدمين وجمع هذه « الأخلاط » وأرغمها على أن تكون شيئاً واحداً ليجد فيه الجواب على سؤاليه .

وخلاصة إجابته كانت كما يلي مختصراً لتفادي الإطالة والتعليل والتفسير :

١ ـ إن الإنسان لا بد أن يأكل ليعيش ، وإذن ، فكل نشاط الإنسان في الحياة مصروف إلى تدبير الطعام لنفسه ، وهذا ما نسميه النشاط الاقتصادي ، لأنه إنتاج واستهلاك .

٢ ـ مع تقدم أساليب الإنتاج يكتشف الإنسان الآلة المتمثلة في الحجر وفرع الشجر في أول الأمر ، ثم لا تلبث الآلة أن تؤول الى مصانع ضخمة كمصانع « كروب » و« فورد » وغيرهما ، ويجد بعض الناس أن السيطرة على أدوات الانتاج هذه تعطيه نصيباً أوفى من الانتاج ، وتكلفهم نصيباً أقل من التعب والمجهود اللازمين للإنتاج ، ويحرز كل ما يمكنه إحرازه منه سواء أكان أرضاً زراعية أم مصانع آلية ، ويخترع كلمة « الملكية » التي يخدر بها غير المحرزين للآلات ليستكينوا لنهبه الحرام .

وبهذا توجد الطبقات : طبقة المُحْرِزين لأدوات الإنتاج ظلماً وعدواناً ، وطبقة غير المحرزين لها الذين يبذلون الجهد الأكبر الأكثر في الإنتاج ، ومع ذلك لا يحصلون إلا على نسبة ضئيلة جداً من هذا الإنتاج .

٣ ـ هذه « الملكية » كلمة لا رصيد لها في الواقع ، وهي ضارة ، لأنها مخدر ، وهي ظالمة ، لأنها سلبت حقوق الأكثرية الساحقة من قِبَل قلة نادرة ، ولأنها بذلك تخدم فئة قليلة دون الفئة الكثيرة ، ذلك لأن قيمة المنتجات ليست في ذواتها ، وإنما قيمتها بمقدار ما بذل فيها من جهد إنساني .

٤ ـ عند صياغة تلك « الكلمة » الظالمة نشأ في المجتمع الإنساني شيء جديد هو حاجة طبقة الملاك للتعاون فيما بينهم لاستبقاء منافعهم ، مع ما يدور بينهم

من صراع ، كل منهم يريد منه أن يحرز نصيباً أكبر من صاحبه ، كالذي يحدث بين الكلاب إذ تتصارع وتتهارش على العظام ، حتى إذا ظهر عدوٌّ لها كالقط تجمعت كلها ضده وفي مواجهته ، فيتعاون هؤلاء « الملاك » على نهب حقوق « العالمين » الكادحين .

٥ ـ في بداية هذا الصراع يجد « الملاك » عدوهم من العمال « العاملين » في غفلة عن حقوقهم فيعملون على استدامة هذه الغفلة ، لأن الصراع الطبقي يكون سهلاً مضمون النصر في هذه الحالة ، ولكي يضمنوا دوام هذه الغفلة من قِبَل العمال يخدِّرونهم بكلمات اخترعوها ، مثل « الملكية » وكلمة « الدين » وكلمة « الأسرة » وكلمة « الوطن » وكلمات الأخلاق والفضيلة الى آخر ما اخترعوا من الكلمات .

وكل هذه الكلمات بلا رصيد ، ولا قيمة لها ، إلا أنها صارت كل كلمة من هذه الكلمات « أفيونا » يخدرون به الشعوب وبخاصة العمال ليستمروا في غفلتهم ، ويستكينوا لطبقة الملاك.

٦ ـ غير أن الغفلة لا تدوم ، وانتشار الوعي الطبقي بين طبقة العمال سيحملانهم على الثورة على طبقة الملاك ، وانتصار طبقة العمال على طبقة الملاك حتم لازم لا مفر منه .

بهذا أجاب ماركس على سؤاليه ، وواضح في إجابته ما أخذه من مختلف الفلسفات والآراء ، فقد أخذ فكرته عن « الملكية » من جان جاك روسو ، وأخذ معنى « القيمة » وأنها مقدار الجهد المبذول فيها من ريكاردو ، وأخذ فكرة « الطبقية » وصراعها من فلسفة التاريخ عند فردريك هيجل بعد أن حوَّلها إلى مادية ، وغير هذا وذاك .

وبهذا صار لماركس نظام اقتصادي ، والواقع أنه ليس له نظام اقتصادي ، بل له تفسير اقتصادي للمجتمع في سكونه وحركته .

فالمجتمع الساكن (الاستاتيكي) عبارة عن طبقات تتجمع بحكم تشابهها

إزاء لقمة العيش إنتاجاً واستهلاكاً .

والمجتمع المتحرك المتطور (الديناميكي) إنما يتطور بحكم هذه العوامل الاقتصادية أو لقمة العيش إنتاجاً واستهلاكاً .

فلنصحح فهمنا للشيوعية ، ولا نقل : إنها نظام اقتصادي ، ونصفها على حقيقتها في هذا المجال فنقول : إنها تفسير للمجتمع في حالته الاستاتيكية والديناميكية على أساس اقتصادي.

وغنيٌّ عن البيان أن تفسير المجتمع اقتصادياً لا يجعل المذهب اقتصاداً ، فالذين فسروا الاجتماع على أساس العقيدة والدين لا يكون تفسيرهم ديناً وعقيدة ، بل بحوثهم من صميم علم الاجتماع ، والذين فسروا الاجتماع الإنساني على أساس سيكولوجي لا تعد بحوثهم علم نفس (سيكولوجيا) بل هي علم اجتماع .

هذا مثل ذلك ، فكما لا يكون بحث الاجتماع على أساس الدين دينا فكذلك بحث الاجتماع على أساس الاقتصاد لا يكون اقتصاداً ، وإنما هو من صميم علم الاجتماع .

ولهذا أحدثت هذه المذاهب والبحوث والتفسيرات لعلم الاجتماع على أساس اقتصادي مرة ، وعلى أساس ديني مرة ، وعلى أساس نفساني مرة ، وعلى أساس حيوي بيولوجي مرة رد فعل عند البعض فقامت مدرسة دوركايم في علم الاجتماع لترفع راية « التفسير الاجتماعي للمجتمع » فليس كل تفسير للمجتمع على أساس علم من العلوم يكون في صميم هذا العلم ويتسمى باسمه ، وإنما هو من صميم علم الاجتماع كما بيّنا ذلك.

فتفسير الشيوعية للمجتمع على أساس الاقتصاد ليس هو من علم الاقتصاد ، وإنما هو ـ كما قلنا ـ من صميم علم الاجتماع .

المهم أن الشيوعية مذهب وفلسفة في الاجتماع الانساني ، ومبنى مذهبها وتفسيراتها على الاقتصاد .

نقول هذا على رغم دعاوى الماركسية والماركسيين ، فالشيوعية مذهب وإن قال ماركس إنها « حتم » ونقول : إنها فلسفة ، وإن ادعى أنها « علم » ونقول : إنها « في الاجتماع الانساني » وإن لم يُرْض ماركس ما نقول .

ولننظر ـ الآن ـ في تفسير ماركس الاقتصادي بالموضوعية التي أخذنا بها أنفسنا ؟ أصحيح هو ؟ .

إن أول قضايا كارل ماركس قوله : « إن الإنسان لا بد أن يأكل ليعيش » .

وهذا صحيح ، لأن الذي لا يأكل يموت جوعاً ، وهذا شيء من البديهيات المعروفة بالضرورة .

ولكن ، أليس على الإنسان إلا أن يأكل ليعيش ؟ .

أليس عليه أن يشرب ليعيش؟ .

أليس عليه أن يتنفس ليعيش ؟ .

أليس عليه أن يتناسل ليعيش؟ .

بلى ، « ليعيش » وليس قصاراه « ليبقى » ذلك أن التناسل يبقى على النوع ، ولكن الذي أقوله ها هنا : إن على الإنسان أن يشبع دوافع الجنس ليعيش هو في ذاته وفرديته ، لأن كلا الجنسين ـ ذكراً وأنثى ـ يموت إذا منع من إشباع غريزة الجنس .

إن من لا يأكل مدة من الزمن يموت لا محالة ، أما الذكر والأنثى الممنوعين من الاتصال يموتان إذا جاء أجلهما ، وموتهما الأشد أنهما لا يحييان في نسلهما .

ومن يمنع من التكلم مع غيره يموت إذا منع منعاً قاطعاً ، لأن الإنسان الحي مخلوق ومفطور على الكلام ، يعطي الناس أفكاره ويأخذ منهم أفكارهم ويبذل كل جهده ليُنَفِّس عن صدره بالتعبير عما في نفسه ، فإذا منع من الكلام ومن استعمال القلم ـ كما يحدث في السجن سجناً انفرادياً ـ اتخذ أظافره وأنامله بدل القلم يحفر بها في جدار السجن كلامه ليقرأه سجين يخلفه .

فلولا حاجته الى الكلام لما برى أظافره وأنامله في الكتابة بها ، ولظل ساكناً وحفظ على نفسه أظافره وأنامله وما ينجم عن بريها من آلام يتحملها بسبب الحاجة الى الكلام .

ولا بد للإنسان أن يغامر ليعيش ، ومن الناس من لا يعيش إلا إذا وقف على حافة الخطر .

وهناك آلاف الأشياء التي يرى فيها أصحابها أداة العيش ، ولا يعيشون إلا بإشباع كل هذه الدوافع .

وما دام كل ذلك واقعاً فإن الخطأ الماركسي في قضية المبدأ يبدو واضحاً أشد الوضوح ، وكذلك يتعرض حجر الأساس في مذهبه للخلل الذي يودي بالمذهب كله في حال الطبيعة ، ولهذا نجد الشيوعيين يطبقون مذهبهم بالقوة الطاغية ، فإذا زالت هذه القوة عاد الأمر للطبيعة والفطرة ، وذهب المذهب مع الريح .

وخطأ المبدأ أو المذهب الماركسي خطأ يدمر القيم ويهدم الإنسانية ، وذلك ما تقصد إليه الشيوعية قصراً .

هذا خطأ أوضحناه .

وخطأ ثان ، يقول ماركس : « إن الإنسان لا بد أن يأكل ليعيش » ثم يستطرد من هذا إلى أن يقول : « يصرف الإنسان كل نشاط لتدبير لقمة العيش » وبهذا قلب قضيته لتصير « إن الإنسان يعيش ليأكل » .

وهذا معنى « صرف الإنسان كل جهده لتدبير معاشه » وقلب القضية هكذا خطأ من ناحية المنطق ، وهو خطأ من جهة الواقع أيضاً ، فان الإنسان « لا بد أن يأكل » لماذا ؟ : « ليعيش » . فالأكل حد أدنى ، وضرورة لا فكاك عنها ، فإذا استوفاها الإنسان ذهب إلى حال سبيله لكي يعيش ، ومعنى هذا أن العيش أرقى وأكبر جداً من مجرد إشباع الضرورات ، وإن ثمة من الضرورات الحيوية ما هو أهم وأشق من ضرورات الأكل ، ولكن الإنسان لا يعيش ليله ونهاره من أجل إشباع هذه الضرورات .

دخل أحد الوعاظ الزهاد على هارون الرشيد فقال له : عظني - وكان أمامه كوب ماء - فقال الواعظ : أرأيتَ لو مُنِعتَ هذا الكوب من الماء وأنت ظمآن ، فبكم تشتريه ؟ قال الرشيد : بنصف ملكي ، فقال الواعظ : أرأيتَ لو شربته فاحتبس في جوفك لا يخرج منه ، فكم تعطي من يخلصك منه ؟ قال : نصف ملكي الآخر . فقال له الواعظ : أَهْوِنْ بملك يذهب بين شربة وبولة ! .

فإذا كان لعظة الواعظ هذه الحقيقة فإن من ينظر في واقع الأمر بشيء من التعمق والتأمل يجد وراء الحقيقة الأولى حقيقة أكبر ، فإن من لا يجد شربة ماء يموت ، ويفقد كل ملكه ، فإذا اشترى الكوب بنصف ملكه فقد ضمن النصف الآخر مع الحياة ، فإذا احتبس الماء الذي شربه ودفع في الشرب نصف ملكه الأول ودفع لمن يخلصه من الاحتباس نصف ملكه الآخر فقد ضمن لنفسه الحياة ، وهذا أعظم مما فقد .

ولكن ، ليس معنى هذا أن الرشيد كان يعيش ليشرب الماء وحده ، ولا كان يعيش ليتبول البول وحده ، بل كل إنسان لا يعيش من أجل الأكل وحده ، وما أهون الحياة إذا كان الأكل وحده غايته كما يريد ماركس .

وخطأ ثالث ، يقول ماركس : « إن قيمة الشيء تتحدد بمقدار الجهد الإنساني المبذول فيه » .

وبناء على هذا يكون ما ينتجه الإنسان هو حق له وحده ، ومعنى هذا أنه يكون « ملكاً له » حتى إذا اكتشف بعض الناس قيمة الآلة في الإنتاج رأى ماركس أنه ليس من حق هذا المكتشف أن يحتفظ بما أنتج ، وأن يكون إنتاجه « ملكاً له » .

لماذا ؟ .

إن القول بأن المنتجات من حق « العاملين » الذين ينتجونها ومعناه : أن عملهم « ملك لهم » بوصف كونهم « مالكين » لعملهم هو حق .

هذا عند ماركس لأنه قوله ومذهبه ، ولكنه ليس قاعدة عامة ، وإنما هو

بصدق إذا أراد هو له أن يصدق، ويكون الشيء نفسه باطلاً إذا أراد ماركس له أن يكون باطلاً ، وليشرب معارضوه من البحر .

عمل العمال حقهم وملكهم ، لأنهم يملكون عملهم.

ونقول له : سمعنا ، ثم نسأل : وعمل مكتشفي الآلة ؟ أليسوا عمالاً ؟ بوصف كونهم عملوا هذه الآلة ! بلى ، هذا هو الجواب الصحيح وليس غيره جواباً على هذا السؤال ، وهو الجواب الذي يجب أن يكون ، وقد كان هو عند ماركس بالنسبة للعمال .

فلماذا تكون « ملكية » عمل « العاملين » أو « العمال » صحيحة ولا تكون « ملكية » عمل « العاملين » المالكين غير صحيحة ؟ ولماذا تكون ملكية هؤلاء المالكين لأعمالهم أفيوناً لتخدير الشعوب ؟ .

هكذا قال ماركس ، ويجب أن يسمع ويطاع ، ولأم من لا يقبل قوله الهبلُ ! .

إن هذا الضرب من الخطأ لا يطرأ إلا على عقل يهودي مغلق عن الحق مثل ديانته المغلقة عليه ، معروف بالأنانية المطلقة ، عقل رجل من القوم الذين قتلوا وسرقوا وسموا المقتولين المسروقين « بالقوم الظالمين».

كل هذه الأخطاء التي أوردناها من الخطأ المنطقي المحض ، أو هو من الخطأ الناجم من نتائج لا تؤدي اليها مقدماتها .

غير أن في هذا التفسير الاقتصادي الذي ذهب إليه ماركس أخطاء أخرى غير هذا النوع الدخيل .

من هذه الأخطاء قول ماركس : « أن قيمة الشيء تتحدد بمقدار الجهد الإنساني المبذول فيه » .

وهذا كلام باطل يأتيه الخطأ من نواحي كثيرة ، نحب أن نبين الرأي فيها لأهميتها في دراسة الشيوعية .

يأتيه الخطأ من توحيده بين معنى القيمة ومعنى الثمن ، ويأتيه الخطأ من نظرته إلى الأشياء ذات القيمة ، وكأنها من نوع واحد لا تتعداه .

أما أن الأشياء ذات القيمة نوع واحد فهو خطأ كبير ، لأن الأشياء نوعان إن لم تكن أنواعاً .

أول هذه الأنواع وأشيعها هو ذلك الذي يعطيه المعطي فيفقده ، ويأخذه الآخر ويربحه ، ومثاله الذهب والفضة والعملة ، ومثاله الطيبات المادية من مطعوم ومشروب وملبوس ومركوب .

والنوع الثاني على عكس النوع الأول ، يعطيه المعطي ويأخذه الآخذ فيزداد المعطي منه ، ويستفيد الآخذ الفائدة التي يربحها كالآداب والعلوم والفنون ، ومثل النصح والتوجيه .

وصدق العربي الحصيف الذي قال : لا يصان العلم بمثل بذله .

والنوع الثالث ربما كان خفياً لا يبدو إلا لعين المدقق ، وأعني به ذلك النوع من القيمة الذي يعطيه المعطي فلا يفقده ، بل يزداد رصيده منه بالإعطاء ، ويأخذه الآخر فلا يربح بأخذه بشيئاً ، مثال ذلك خبرة الطبيب وعلمه في علاج المريض أو في جراحته ، يعطيها الطبيب مريضه فلا تنقص خبرته ، بل تزيد ، ويأخذها الآخذ المريض فلا يأخذ شيئاً من الخبرة والعلم ، وإن انتفع من نتيجتها شفاء من داء .

وربما استفحل الداء ، وربما مات المريض ، فإن نتيجة الخبرة شيء مختلف عن الخبرة نفسها ، ولذلك نقول : إن الطبيب يستفيد خبرة فوق خبرته ، ولا يستفيد المريض من خبرة الطبيب شيئاً من نوع الخبرة وإن انتفع بنتيجتها حينما يغنم الشفاء .

فإذا كانت هذه أنواعاً ثلاثة تختلف في اللباب والجوهر كل هذا الاختلاف المبين فكيف يقال أو يجوز أن يقال : إن مرد القيمة فيها جميعاً واحد هو الجهد الإنساني المبذول فيها ؟ .

هذه واحدة.

والثانية أن ماركس يوحِّد بين الشيء القيم والجهد المبذول فيه ، وهما شيئان مختلفان أشد الاختلاف ، ولا يلتقيان إلا في حالات الإنسان السويِّ الذي لا يعاني من العاهات والأمراض .

ولكن ، هب أن مجنوناً يبذل جهداً كبيراً في نقل الماء من النهر الى النهر نفسه كساقية جحا المشهورة ، أو هبه يمزق ثوبه ثم يخيط ما مزقه ، أيكون لجهده هذا قيمة ؟ ثم هب هذا المجنون قد وقع على درة ثمينة وجدها لقىً في التراب ، أيقلل من قيمتها أنه وجدها لقطة بغير جهد بذله فيها ؟ .

إن الشيء القيم والعمل المبذول فيه شيئان مختلفان ، والتوحيد بينهما خطأ مبين .

ربما كان العمل عاملاً من عوامل القيمة في الشيء القيم ، فهذا شيء لا نكران له ما دام العمل من النوع القيم الذي يزيد في قيمة الشيء المبذول فيه ، أما القول بأنه المرجع الوحيد للقيمة فخطأ واضح لا مراء فيه.

أما الثالثة فهي الخلط بين القيمة والثمن.

إن الهواء « أقيم » شيء في الحياة ، أقيم حتى من الطعام نفسه ، ومن الشراب عينه ، ومع هذا لا ثمن له .

يقول الشيوعيون ـ وطالما أهابوا بهذا المثل ليدللوا على أن رأيهم في أن العمل مصدر القيمة صحيح ـ : إن الهواء المبذول بغير عمل إنساني مبذول فيه ـ على ما له من منفعة وضرورة وقيمة ـ لا قيمة له ، أما الهواء الذي تنتجه المراوح وأجهزة التكييف دافئاً أو بارداً على حسب المراد مركزاً كطاقية الإنعاش وكأنبوبة الغطاس ومتسلق الجبال ، الهواء الذي دخل فيه العمل الإنساني له ثمن كبير ، وإذن ، فالقيمة مرجعها عمل الإنسان لا الشيء الطبيعي الموهوب .

إلا أنهم ها هنا يخطئون ويغالطون كديدنهم في كل استدلال واستشهاد ،

ذلك أن الثمن ها هنا هو ثمن العمل الذي بذل وليس ثمن الهواء نفسه ، فالمروحة التي أعطتك الهواء لم تصنعه وتنتجه ، وإنما حركت الهواء ، فالثمن للحركة وليس للهواء نفسه ، وكذلك أجهزة التكييف ، فهي لا تعطي الهواء بارداً أو دافئاً ، وإنما الهواء موجود ، فهي تبرده أو تدفئه ، وللتبريد والتدفئة ثمن ، وليس الثمن للهواء نفسه .

فمثلاً : الماء في البحر أو النهر أو العين أو البئر لا ثمن له إذا أخذته ، أما الماء الذي يستقيه السقاء ويحمله إليك فلا بد له من أجر عمله ، وأنت لا تعطيه ثمن الماء ، ولكن أجر عمله في الاستقاء والنقل .

وقصة موسى عليه السلام عندما سقى للفتاتين لم يأخذ من أبيهما ثمن الماء ، وإنما الذي أخذه أجر العمل الذي قام به ، وها هي ذي رواية القرآن الكريم :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[1] .

إذن ، فأجر العمل شيء وثمن هذا الشيء شيء آخر ، وهما مختلفان ، يختلف أحدهما عن الآخر ، وهما يختلفان عن القيمة التي هي شيء ثالث غيرهما .

ولهذا قد توجد القيمة حيث لا عمل ولا ثمن مثل قناع أخناتون ، وقد يوجد العمل ولا قيمة مثل هذيان المجنون ، وقد يوجد الثمن ويزداد وينخفض

---

(١) القصص : ٢٣ - ٢٥ .

ولا قيمة هنا هناك كتمائم السحرة ورُقى المشعوذين بين الأقوام المتخلفين .

وربما جاز لنا في هذا المجال أن نضيف شيئاً على ذلك النوع من الأشياء القيمة التي يعطيها المعطي فيفقدها ويأخذها الآخذ فيربحها، مثل رغيف الخبز يعطيه المتصدق فيفقده، ويأخذه الفقير المحتاج فيربحه.

هذا الشيء الذي نحب أن نضيفه ها هنا هو أن هذا الرغيف لا ينقص المعطي ، ولكنه يزيد الآخذ ، ولنقل : قد ينقص المعطي شيئاً زهيداً جداً لا يكاد يذكر ، ولكنه يزيد الفقير المحتاج بنسبة فقره وحاجته .

وقد يعطي المعطي من ماله فقيراً فيغنيه دون أن يفقد المعطي بما أعطى ودون أن يحس بنقص شيء من قيمته .

مثال ذلك الزكاة في الإسلام ، فهي طُهْرة للمال ، وتزكية لهذا المال ونماء ، هكذا اعتقاد المسلم ، وهو حق .

فلو أن غنياً يملك مليون ريال وجبت فيها الزكاة لكان عليه أن يخرج خمسة وعشرين ألف ريال هي نسبة ربع العشر الذي يساوي ٢,٥٪.

فلو أن هذا الغني أعطى الخمسة والعشرين ألف ريال فقيراً واحداً لكان في ذلك غنى الفقير ، وصار في عداد الأغنياء .

في هذه الحال لا ينقص مال الغني المزكي في قيمته بمقدار ما زاد مال الفقير .

ونعود لرغيف الخبز لنضرب به مزيداً من الأمثال ونقول :

لو أنه كان لديَّ رغيف واحد زاد عن حاجتي ، واستغنيت عنه حتى وصل بي الاستغناء إلى إلقائه في سلة المهملات ، فإذا جائع يتضوَّر جوعاً وأعطيته إياه ، هنا تكون للرغيف قيمة كبرى أضعاف أضعاف قيمته الحقيقية .

ونضرب مثلاً آخر بهذا الرغيف فنقول : لو أنني كنت مسافراً في صحراء ،

وكان الرغيف فضل طعام عندي ، وكنت في تلك الحال غنياً قادراً أملك مئات غيره من الخبز الطازج ، وكان يصحبني فقير اشتدت به ضراوة الجوع ودفعت له ذلك الرغيف الذي أنا في غير حاجة إليه ، بل أنا في غنى عنه ، بل وصل بي الاستغناء عنه إلى حد أنني عزمت على رميه في الصحراء ، فأعطيته ذلك الذي أضرَّ به الجوع .

إنني لم أفقد شيئاً ، لأن ما كرهته لست بحاجة إليه ، فهو لا قيمة له عندي ، ولكن هذا الرغيف عند ذلك المسافر الجائع ترتفع قيمته إلى درجة عالية جداً .

فمن أين أتت هذه القيمة المستجدة المستفادة وليس في الأمر جهد إنساني مبذول في الرغيف غير الذي كان مبذولاً فيه من قبل ، ليس فيه مزيد من الجهد ، وهو زائد عن حاجتي ، بل أنا لا أريده .

فإذن ، فإن تبادل الطيبات القيمة التي من النوع الأول ، والنوع الذي يفقده معطيه ويربحه آخذه ليس بالبساطة الساذجة التي يقول بها كارل ماركس ، بل في الأمثلة التي سلف ذكرها إدحاض لرأي ماركس في القيمة والعمل .

وبعد ، فإن الشيوعية مذهب كثير الثغرات ، وخطأه كثير ، وشره مستطير ، وكله ظلم وشر وفساد يصيب المجتمع الإنساني في الصميم فيفقده إنسانيته وحريته وكرامته .

ولو أردنا تتبع أخطاء هذا المذهب الهدام للزمنا أن نضيف إلى بحثنا هذا مجلدات ، ولكن فيما ذكرنا غناء ، لأننا أوجزنا القول إيجازاً ، وفيه البلاغ بمشيئة الله .

ومع هذا فمن أراد المزيد من العلم ففي الكتب المؤلفة بالعربية والمترجمة إليها وفي اللغات الأخرى التي تناولت الشيوعية من جميع جوانبها ما يحقق له الزيادة المنشودة.

الشيوعية نظرية علمية أو فلسفة

بيَّنا فيما سلف أن الشيوعيين رفضوا أن تسمى شيوعيتهم باسم « مذهب في الإصلاح الاجتماعي »[1] لأن هذا الاسم ينطبق على من سموهم « أصحاب الاشتراكيات التي لا تتفق مع « الثورية » التي تنادي بها الشيوعية .

ونحن ـ أيضاً ـ لا نوافق على إطلاق ذلك الاسم على الشيوعية ، لأن الإسلام لا يرى في الشيوعية صلاحاً وما هو بمذهب في الإصلاح الاجتماعي ، لأن معنى الصلاح لا يمكن أن يقوم على تدمير الأخلاق والمشاعر الإنسانية والعقائد والمثل ، وعلى سفك الدماء وسلب الحريات .

ويرفض الشيوعيون أن تسمى شيوعيتهم باسم « النظرية » لأن الشيوعية في زعمهم له ما للعلم من « حتمية » لا يمكن إلا وقوعها كما ظن كثير من علماء ذلك الزمان .

وتأكيداً من الشيوعيين للعلمية التي زعموها لشيوعيتهم أنهم ـ بعد ماركس ـ وصفوا شيوعيتهم « بالاشتراكية العلمية » تمييزاً لها عن الاشتراكيات الأخر التي اختلفت في خط سيرها عن الشيوعية ، ونفياً لصفة « العلمية » عن هذه الاشتراكيات ، لتصبح « العلمية » سمة الشيوعية وحدها .

---

(١) بعض من كتبوا في الشيوعية ذكروا أنها ليست مذهباً في الاقتصاد ، وإنما هو « مذهب في الإصلاح الاجتماعي » ونحن نرى أنه مذهب في التغيير الاجتماعي ، والتغيير يكون طيباً ويكون خبيثاً ، والشيوعية خبث كله وشر وفساد .

وأما الشيوعية فلسفة فنحن ننفيها عنها بالمعنى الاصطلاحي لها .

فالفلسفة بمعناها الاصطلاحي هي محاولة متكاملة لتفسير كل ما يشغل بال الإنسان من المسائل العليا على أساس فكرة واحدة يثبتها الفيلسوف بالدليل الذي يتراءى أنه مقنع ، ثم يستطرد من فكرة الأساس هذه ليبين بالدليل أيضاً كيف ينسق هذا التفسير مع أصغر ما في هذه الدنيا وأكبر ما فيها على السواء .

مثال ذلك فلسفة أفلاطون التي بناها على فكرته في « المثل Ideas » وفلسفة أرسطو طاليس التي بناها على فكرة « الهيولى والصورة » ومن الفلاسفة من يعود على الفلسفة نفسها ليحدد مجالها واختصاصها بناء على مذهبه كالذي فعله « كنط » الألماني أستاذ « هيجل » حين حدد مجال الفلسفة بنظرية المعرفة وحدها دون غيرها من مجالات الفكر الفلسفي ، فكان ما فعله بداية لتيار فكري قوي أدى في نهايته الجافة العجفاء إلى كارل ماركس المتتلمذ على فكر « هيجل » تلميذ كنط ، دون أن يفهم فكر هذا الفيلسوف ولا فكر أستاذه الكبير .

هذا المعنى وذاك ـ كلاهما ـ لا يتوافران في الفكر الشيوعي ، لأن الشيوعية مجموعة متنافرة من الأفكار المنهوبة من هنا وهناك بغير تنظيم واتساق يحدثهما فكر رجل منظم منسق منطقي ، وكل ما نجده فيها صيحات تتبع آخر صيحة في زي العصر الذي يتزين به العلماء .

كان علماء الكيمياء والفيزياء يومئذ يقولون بالحتمية علاقة بين السبب والنتيجة ، فقال ماركس « بالحتمية » في التطور الاجتماعي .

وقال علماء الاقتصاد أو بعضهم على الأقل ونعني به ريكاردو بالذات : إن العمل هو أساس تحديد قيمة الشيء من حيث يعنون بالقيمة الثمن ، فقال ماركس بهذا القول .

وسيطرت فلسفة فردريك هيجل على خيال الألمان بخاصة وأوروبا بعامة ، وهي فلسفة مغالية في المثالية والبعد عن الواقع ، أقامها صاحبها على أساس فكرة الجدل الثنائي أو الديالكتيك ، فتزيا كارل ماركس بزي العصر ،

وأدخل الديالكتيك في مذهبه على ما بينه وبين المنهج العلمي من تناقض لا يسمح باجتماع النقيضين إلا في عقل يهودي مثل كارل ماركس .

والدليل على عمق اليهودية في عقل كارل ماركس ونفسه أنه لم يقبل مثالية هيجل فجعلها مادية ، ولم يقبل إيمانه بالله المطلق فألحد ، ولكنه قبل منه جدلية التطور في فلسفة التاريخ .

بيد أنه حتى يوم قبل جدل التطور التاريخي لم يقبل رأي هيجل الذي يصل هرمه الجدلي المتطور إلى الدولة التي هي عنده « الكائن المطلق » الذي له كل الحقوق وليس عليه واجبات ، أي دكتاتورية مغالية مبالغ فيها ، فجاء ماركس وجعل الدكتاتورية و« الكائن المطلق » لأدنى طبقة من طبقات المجتمع الإنساني ، وليس لأعلى ما يصل إليه التطور .

ومن هنا وصل ماركس إلى الإلحاد التام ، لأنه لا يعترف لله بوجود علمي ولا منطقي حتى ولا فرضي أو مثالي ، ولأنه لا يعترف بالعاطفة الدينية التي يراها في الناس دافعاً قوياً للسلوك والتعامل ، لأنه بوصف كونه يهودياً محروماً من هذه العاطفة ، ولكونه أنانياً لا يرى في الناس ما هو محروم منه ، ولأنه ـ ثالثاً ـ لا يعترف للدين بأثر في حركات التاريخ ، ولا حتى من قبيل ما حدث فعلاً مثل حركة موسى عليه السلام عندما نقل اليهود من الذل والاضطهاد من قِبَل فرعون إلى حياة الحرية والكرامة ، ومثل الحروب الصليبية أو كالحرب الدينية في غرب أوروبا في العصر الحديث قبل مولد ماركس بقرن واحد من الزمان لمجرد أن هذا الاعتراف بأثر الدين يتعارض مع ما استقر عليه رأيه في تفسير التاريخ وتطوره .

والعجب العجاب أن هذا الملحد كارل ماركس التامَّ إلحاده يؤمن باليهودية ، وهذا ما يدل على أن اليهودية في أنفس أمثال هذا الرجل ليست عقيدة ، بل هي نسب وانتماء قبلي أو أسري .

فإذا ما نوقش في فلسفته هذه ؛ وأن فردريك هيجل مصدرها الأول كان يؤمن بالمطلق The Absolute الذي يجمع كل المتناقضات وليس له نقيض ، ولا يفترض نقيضه ، ولا يوجده لا يورد ماركس دليلاً واحداً ينقض به كلام أستاذه

أو يؤيد به العدول عن إيمان أستاذه إلى هذا الإلحاد الذي ألحده ، وإنما إلحاد وحسب ، ومن لا يعجبه أو لا يرضى بهذا الإلحاد فهو موصوف منه بشرِّ النعوت .

ولربما وجه إليه القول بأن الميزة الكبرى لفردريك هيجل ، بل ربما كان مفتاح شخصيته الفلسفية أنه رجل منطقي التفكير ، و« المنطق » مفتاح أفكاره جميعاً ، حتى أنه كان يذهب في التفكير مع مقتضيات المنطق إلى حيث ذهبت به ولو أدت به إلى الغموض والعقم وقلة الجدوى ، بل والسخرية في بعض الأحيان[1] .

وإن رجلاً هذا شأنه لا يمكن أن تؤخذ مقدماته دون نتائجها إلا بانكسار حاد في التفكير ، ولكن ماركس لم يكن يهتم بمثل هذا القول ، فحسبه أنه رأى هذا ، وعلى المنطق أن يلتوي فيسير في فجاج مخه اليهودي الملتوي المتشعب على غير نسق ولا اعتدال .

وهكذا يعجز كارل ماركس وفكره إذا مضينا نبحث فيه عن مذهب

---

(١) من أمثلة السخرية في نقد هيجل ما قاله برتراند رسل في كتابه « العقل والمادة » ترجمة الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف (طبعة القاهرة) وهذه مقولة رسل من صفحة ٦١ :

« إنك إذا راقبت حافلة تقترب منك في ظلام ضباب لندن المعتم فستلمح أولاً كتلة مهوشة من ظلام داكن ، ثم تبدأ شيئاً فشيئاً في تمييزها على أنها عربة ، وتمييز أجزائها وركابها ، واعتقاد هيجل أن لمحتك الأولى للكتلة الغامضة من الظلام أوضح وأدق من النظرة التالية ، لأن هذه النظرة التالية من وحي النوازع المضللة للعقل التحليلي »

وبهذه المناسبة أحب أن أقول : إن برتراند رسل ليس شيوعياً ، بل هو أحد خصومها الكبار ، فبعد الحرب العظمى الثانية كتب إلى رئيس حكومة بريطانيا ورئيس جمهورية أمريكا رسالة يطلب إليهما فيها أن يتجها إلى الشيوعية ويقضيا عليها مثلما قُضِيَ على النازية والفاشية ، قبل أن تصل الشيوعية إلى سر القنبلة الذرية ، وحينئذ لا يمكن القضاء على الشيوعية ، فثارت ثائرتها حينئذ على رسل .

ومعروف عن الشيوعية «الانتهازية» فعندما نشر رسل حملته الشديدة على التسليح أراد الشيوعيون استغلال حملته وندائه للسلام لصالحهم والدعاية لمذهبهم ، فاستغلوا اسم رسل وحملته ودعوته للدعاية لمذهبهم الهدام ، وأشاعوا على أساس ذلك أن رسل واحد منهم ، مع أنه لم يكن شيوعياً في يوم من الأيام ، بل كان ضد الشيوعيين بقوة وحماسة منقطعتي النظير .

فلسفي ، لأنه ليس حبات متناسقة منظومة في عقد ، وإنما أفكار متناثرة ، في بعضها صواب ليس له فضل فيه ، وإنما الفضل في هذا الصواب يرجع إلى أصحاب الأفكار التي أخذها منهم ، وأكثر الأفكار الأخرى زيف له بريق .

وهذه الأفكار جميعها تفقد الصواب إذا اجتمعت كما اتفق ، وتصير خطأ لا صواب فيه ، وتبدو كثوب خيط من قطع شتى كثيرة مختلفة الألوان والمقاسات ، ويجوز أن يكون بين هذه القطع قطعة حرير ، وقطعة ديباج ، وقطعة من كتان ، ومئات القطع من ساقط المنسوج .

هذا الثوب مرفوض من ذوي الذوق السليم وندر في الناس من يلبسه إلا شاذاً أو مهبولاً .

ربما كانت فكرة واحدة من تلك الأفكار صواباً إذا كانت وحدها ، أما وتلك الأفكار مجتمعة فإنها تكون حينئذ خطأ لا صواب به ، وقبحاً لا جمال فيه ، لأن الأشلاء المنتزعة من عديد من الأجسام الحية المختلفة في ألوانها وأحجامها ومقاساتها لا تكَوِّنُ جسماً واحداً ينبض بالحياة ، وإذا صنع من هذه الأشلاء المختلفة جسم حي فما أشد قبحه .

وصنيع كارل ماركس هو صنيع جامع الثوب من تلك القطع ، وهو نفسه جامع الأشلاء ، فقد أخذ شلواً من هنا وشلواً من هناك ، وسطا على المقدمة بعد أن ألغى نتيجتها بعيداً بلا منطق معقول ولا مسوغ مقبول ، وأنشأ من هذه الأشلاء مذهباً لا يمكن أن يقبله إلا ذوو العاهات، أما الأصحاء السالمون فلن يقبلوه وهم أحرار .

ولهذا نجد الشيوعية مرفوضة ، ولا تُطَبَّق إلا بالعنف والإكراه ، فإذا سلم المجتمع منهما عاد إلى طبيعته القويمة وفطرته السليمة .

ربما تراءى لبعض الناس أن يسألوا: لماذا تمكن هذا اليهودي المنبوذ بهذا الفكر الخاطىء المجرد من الخير والإنسانية والرحمة بمفهومها الصحيح من جر قسم كبير من البشرية وراءه على هذا النحو الذي نراه ؟

والإجابة على هذا السؤال ذات شعب وفروع يطول بنا المسير في استيعابها ، ونحن نوجز القول بذكر أهمها .

فأولاً ـ قد سبق الشيوعية كثير من مذاهب الهدم وجدت أنصاراً وأتباعاً ، لأن البشرية من السعة بيحث تتسع للعاهات والمفاسد أكثر من اتساعها للخير والسلامة ، فلا غرابة أن تجد الشيوعية أنصاراً وأتباعاً ، ويزيد في عدد هؤلاء الأتباع خلل المجتمعات الغربية ، وحقد الناس بعضهم على بعض .

ورواج مذهب بين ملايين البشر ليس معناه صلاحه ، وإنما معناه وجود مزيد من الخلل في المجتمع .

ولم يأت رواج الشيوعية عن إيمان الناس بصحتها وسلامتها ، بل كان رواجها بين ذوي العاهات من البشر ، وهؤلاء انتزعوا السلطة بالعنف والإكراه وفرضوها على المجتمع فرضا ، فمن لم يقبلها قتل شر قتلة ، ويكفي لبيان هذه الحقيقة فرار الملايين من الاتحاد السوفيتي الذي عرف بالستار الحديدي الذي حال دون خروج الناس منها ، وتحريم السفر على كل المواطنين .

وثانياً ـ كل أقطاب الشيوعية وعلى رأسهم إمامهم كارل ماركس ذوو عاهات ، وليس بينهم رجل سليم رشيد ولا امرأة صحيحة ، بل كلهم مرضى ذوو عاهات .

والمجتمعات الانسانية لا تخلو من الحاقدين والشاذين والوثنيين والملحدين وذوي العاهات ، فأي لواء شيطاني شرير يجد أتباعاً وأنصاراً ، وهؤلاء ينشرون عاهاتهم بالقوة ، وكذلك فعلوا في روسيا .

وثالثاً ـ تطبيق الشيوعية في روسيا برهان واضح على حقيقة رواجها وشيوعها .

ففي روسيا شاع خلل الموازين منذ أوائل القرن العشرين خللاً بيناً ، ووجود هذا الخلل يسمح بظهور الأمراض والعاهات وانتشارها ، وكلنا يعلم أن انتقال السلطة الى الشيوعيين ما كان ليتم إذا لم يكن هناك كثير من الخلل في

تركيب المجتمع الروسي ، ووجود هذا الخلل سمح للشيوعية بالظهور وانتزاع السلطة .

وكلنا يعلم أن ضحايا فرض السلطة لا يحصون لكثرتهم .

وكلنا يعلم أن الشيوعية لم تُسْتَقْبَل في أي بلد بحفاوة الأحرار المختارين ، بل فرضت بقوة الحديد والنار ، وحتى كتابة هذه السطور وما بعدها نجد البلدان الشيوعية بدون استثناء مغلقة على أهلها ، لا يزورون ولا يزارون ، وليس بها أي صوت يدل على الحرية والاختيار ، فلا صحافة حرة ، ولا معارضة .

ودكتاتورية السلطة والحكم والحزب في البلدان الشيوعية دليل على أن الشرعية مفقودة ، والحرية مسلوبة ، والإرهاب هو الحاكم المسيطر وحده .

وطبيعي أن تختفي نوازع الخير والرحمة والإنسانية في مجتمع الشيوعية ، وطبيعي أن تموت الحرية ، وحينئذ يتحول الناس الى قطعان تسوقها عصا الراعي الغشوم أو إشارة منه .

ورابعاً ـ ليس في الشيوعية اليوم من يؤمن بالفكر الشيوعي الذي تخيله ماركس ، لأن الفكر الذي يسمى اليوم شيوعياً غريب على الشيوعية الماركسية ، وأبعد ما يكون عن الاتفاق معها من كل من ناقضهم ماركس في حياته ، وإن جون ستيوارت مل الموصوف بأنه أبو الاقتصاد السياسي المعاصر لماركس لأقرب إليه من كل من خروتشوف وتيتو وماوتسي تونج وجان بول سارتر.

وخامساً ـ إن الذين اتبعوا ماركس ليسوا رجال فكر ولا فلسفة ، بل هم مغامرون من حثالة البشر ، يعيشون في بيئات العمال وأوساطهم ، يستغلونهم أبشع استغلال دونه استغلال الرأسمالية التي يجد العمال فيها حريتهم في القول والعمل والإضراب ، ويتمتعون بكل أنواع الحريات .

يقول برتراندرسل[1] : « إن تاريخ الكلمات شيء عجيب ، فما من أحد

(١) كتاب «العقل والمادة» لبرتراندراسل، ترجمة الاستاذ أحمد ابراهيم الشريف، من الفصل المعقود في «جون ستيوارت مل»، ص ١٧٢ .

في عصر مل ـ باستثناء ماركس على الأكثر ـ كان يمكن أن يخمّن أن كلمة «الشيوعية» ستعني في المستقبل طغيان القلة عسكرياً وإدارياً وقضائياً، غير تاركة للعمال من حصيلة عملهم إلا ما يكفي لكي يمنعهم من الثورة الجائحة ولا يزيد، وإن ماركس الذي نراه الآن صاحب التأثير الأكبر من بين معاصريّ من لم يذكر اسمه في كل ما اطلعت عليه من كتابات مل.

ومن المحتمل جداً أن مل لم يسمع به قط، وقد نشر «البيان الشيوعي» في ذات السنة التي ظهر فيها كتاب مل «الاقتصاد السياسي» ولكن قادة الفكر في وقته لم يعلموا به، ولست أدري أي مغمور في وقتنا الحاضر سيكون بعد مائة عام من الآن هو الشبح المسيطر على ذلك الزمان؟».

وهذا تصوير في غاية الدقة والأمانة، فكارل ماركس وكل فكره وكتاباته كانت في طي النسيان، وما كان لها أن ترى النور لولا أن أخذ بها بعض المغامرين الزراعيين الذين يمتصون دماء الفلاحين والعمال، فقاموا بثورات ضد حكوماتهم، ونجحت ثوراتهم كما تنجح الثورات عقب الهزائم الكبرى في الحروب العظمى، وكونوا دكتاتورياتهم التي سموها ـ بالمصادفة ـ باسم «الشيوعية» ولو سموها بأي اسم آخر لما اختلف الأمر، لأنها لم تكن ثورات أفكار ومذاهب على أي حال وعلى كل حال.

وسادساً وأخيراً ـ رأينا عقب الحرب العظمى الثانية مذاهب هدم وفساد شاعت في الأرض، وتبعها مئات الملايين على غير إيمان بأنها مذاهب تدعو إلى الخير، وإنما تبعوها لأنها تحقق لهم لذات ما كانت لتتحقق لو كان الأمر للقيم والأخلاق.

فإذا شاعت الشيوعية وقامت لها دول وحكومات فلا غرابة، لأنها سادت في بيئات الفقر، وفي مجتمعات أصاب الخلل كل تركيبة من تركيباتها.

وطبيعي أن تنتشر جرثومة الوباء وتعم أفراد المجتمع إذا لم تكن هناك قوة تحصرها وتعالج المصابين وتقضي على الجرثومة الشريرة قبل أن تنتشر وتستفحل.

وعندما نجحت الثورة الشيوعية في روسيا كانت روسيا مختلة الموازين ، ولم تكن دولة صناعية من الدول الصناعية الكبرى كبريطانيا وفرنسا وألمانيا ، بل دولة فقيرة .

وقيام الشيوعية في روسيا ونجاحها أول تكذيب لتكهنات كارل ماركس الذي تكهن بانتشار الشيوعية في الدول الصناعية الكبرى حيث يتجمع العمال بأعداد كبيرة .

ونجاح الثورات الشيوعية في روسيا والصين تكذيب لكهانة ماركس .

ونجاح الشيوعية في الأقطار التي نجحت فيها دليل على أن نجاحها وقف على المجتمعات الضعيفة المتأخرة المختلة اختلالاً كبيراً حيث يسود الفقر والمرض والجهل والخمول وفقدان العقيدة الدينية .

ومنذ أن ظهرت الماركسية فكرة ودعوة من عهد كارل ماركس إلى يومنا هذا لم تقم الشيوعية في الدول الصناعية الكبرى مثل أمريكا وبريطانيا وألمانيا واليابان ، لأن الشيوعية تزعم أنها قامت لإنصاف الكادحين من فلاحين وعمال وجنود ، ورفع مستواهم .

ومع أن الشيوعية نجحت في إقامة دولة عملاقة هي الاتحاد السوفيتي فإن الفلاحين والعمال والجنود ما يزال مستواهم في الاتحاد السوفيتي وفي الصين الشيوعية وكل الأقطار الشيوعية مستوى خفيضاً جداً .

وارتفاع مستوى الكادحين يلغي المهمة المزعومة للشيوعية ، وحينئذ تموت الشيوعية من تلقاء نفسها ، لأنه لا داعي لوجودها وبقائها بعد انتهاء مهمتها المزعومة .

ولما كان وجود الشيوعية وبقاؤها وحياتها مرتبطة بانخفاض مستوى الكادحين من فلاحين وعمال وجنود فالشيوعية حريصة على بقاء مستواهم خفيضاً الى أبعد حد ضماناً لبقائها .

***

والخلاصة الأخيرة بعد كل خلاصة تستخلص من واقع الشيوعية هي أن الشيوعية أبشع مذهب هدام ظهر على وجه الأرض ، وأن من يعيشون تحت سلطانها الغشوم أشقى البشر طُرّاً ، فهم محرومون من كل أنواع الحريات ، بل محرومون من أبسط أنواعها ، فلا يتمتع الإنسان في ظل الشيوعية بحرية الحركة ، فلا يستطيع العامل سلوك طريق من مسكنه إلى معمله غير الطريق المرسوم له .

بل لا يستطيع الإنسان تحت نير الشيوعية أن يبدل غرفة نومه فينقلها إلى غرفة الطعام ، لأن الشيوعية هي التي رتبت ونظمت ووزعت ، ومجرد التغيير في تجديد ترتيب المنزل اتهام للشيوعية ونقد لها بأن هناك بديلاً لما فعلت ، وهذا في شريعتها ذنب غير مغفور ، وإثم عقابه جدٌّ عسير .

ومن الخلاصة المكثفة المركزة بعد كل خلاصة أن السبب الأساسي الجوهري الحقيقي في عدم قبول أي إنسان واع سليم الفطرة أيا كان موقعه في هذا الوجود للشيوعية يعود إلى أن الشيوعية في النظرية وفي الواقع على السواء مجردة عن الإنسانية التي هي نقيضها ، فهي ـ أي الشيوعية ـ مسخ لجمال الإنسانية ولحقيقتها مسخاً يقضي على ما في الوجود من قيم روحية ومعنوية وأدبية وخلقية ، بل ومادية أيضاً كقيم البيع والشراء والإرث .

وخلاصة الخلاصات أن الشيوعية جرثومة وباء هو شر ضروب الأوبئة طُرّاً ، والشيوعية خلاصة كل الشرور والموبقات والفساد والعاهات .

الشيوعية والانسانية

تعرف مذاهب الإصلاح أو الفساد بأصحابها كما يعرفون هم بمذاهبهم ، ولمعرفة مذهب إمام الشيوعية كارل ماركس نعرض حياته ودعاواه ليُعْرَفَ هو ومذهبه على السواء.

فهو نفسه لم يكن مؤمناً بالشيوعية حينما دعا إليها وألف فيها كتبه ، ولم يكن من أصحاب القيم والمبادىء ، بل كان مجرداً منها ، وكان قلبه جامداً لا ينبض بالرحمة على أصوله وفروعه .

كان اليهود منذ عُرِفوا ووُجِدوا مكروهين من كل شعب ومن كل بلد ، وعلى مر الأيام تزداد كراهية الناس لهم لما طُبع اليهود عليه من الشر ، وكانوا على مدى التاريخ كله يخططّون ويتآمرون ويؤسسون الجمعيات السرية للإيقاع بالناس طراً .

ويرى اليهود العالم كله عدواً لهم ، ويطلقون عليهم « القوييم » ومعناها : الأنجاس ، والوثنيون ، والكفرة ، والكلاب ، والخنازير ، والبهائم .

فكل البشر عند اليهود هم هؤلاء القوييم ، وكتبهم المقدسة كالتوراة والتلمود تؤجج في نفوسهم الحقد والكراهية والبغضاء للناس جميعاً ، لا فرق بين طفل وشيخ وامرأة وعذراء ورُسُل ومصلحين ، وتوراتهم تأمرهم بقتل كل هؤلاء قتلاً .

فهم في ناحية ، والعالم كله في ناحية ، ولا يمكن أن يصلح اليهود ، لأن طبيعتهم وعقيدتهم غاية في الشر والفساد ، فهم لا يصلحون ولا يمكن أن يصلحوا ، لأن تجريد الإنسان من طبيعته التي فُطِر عليها مستحيل .

وكان يهود أوروبا بخاصة مكروهين من الأوروبيين كما كانوا مكروهين من غير الأوروبيين ، وكانت السيادة على العالم في القرن التاسع عشر للمسيحيين الأوروبيين فوجه اليهود نقمتهم إلى الأوربيين ، وأخذوا يخططون للانتقام ، فطفقوا يبتكرون مذاهب الهدم ، وما يزال اليهود هم مبتكرو مذاهب الهدم في العالم إلى يومنا هذا .

أوجدوا « الماسونية » لتجريد الإنسان من كل قيمه الروحية والدينية والخلقية والوطنية والقومية ، حتى يكون بيد اليهود آلة صماء يتحكمون فيها .

وفكروا في إيجاد مذهب يقضي على الرحم الإنساني والرحمة والأشواق الإنسانية العليا ، ويسيطرون به على نشاط الإنسان وأمواله وممتلكاته وثمار عمله ونشاطه ووطنه فاخترعوا لذلك الشيوعية .

ولما وضع اليهود مخططهم للشيوعية بحثوا عمن يصلح لهذه المهمة الشريرة ، بحثوا عمن يضع لهم فكرة الشيوعية في قالب مذهبي عقائدي يقوم على إيديولوجيا ـ كما ذكرنا فيما مضى من الصفحات ـ فوجدوا بغيتهم في يهودي لئيم حاقد هو كارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣ م) وقام المحفل الأعلى للكنيس اليهودي بالاتفاق مع كارل ماركس وفردريك انجلز على وضع الشيوعية في نظرية عقائدية مبنية على أسس علمية كما يدعون ، واستأجرهما لهذا الغرض ، وجمع المحفل مالاً هو أجرتهما تلقاء هذا العمل الشرير ، فألف ماركس وانجلز البيان (المانفستو) الشيوعي ، وألف ماركس كتابه رأس المال « كما ألف كل من ماركس وانجلز كتباً أخرى» .[1]

فأساس فكرة الشيوعية يهودي ، إذ جمع المحفل الأعلى للكنيس اليهودي

---

(١) وليم كار في كتابه «الدنيا لعبة إسرائيل» ، الطبعة العربية .

فكرة الشيوعية مما انبثقت عنه اليهودية من أفكار جهنمية هدامة ، ثم وكل المحفل إلى ماركس وإنجلز وضع هذه الأفكار في نظرية عقائدية ، ولم يكن ماركس صاحب المذهب ولم تكن الشيوعية من وضع ماركس ، بل كان أجيراً من قبل الكنيس اليهودي على وضع الأفكار الشيوعية التي تسلمها منه في نظرية عقائدية .

وكان ماركس مستعداً لهذا العمل الفظيع ، فهو يهودي مخلص ليهوديته ، وهو بوصف كونه يهودياً يحقد على العالم كله بمختلف أجناسه وأوطانه وأديانه وشعوبه ، لأنهم جميعاً في نظر اليهود - ومنهم ماركس - قوييم .

وبذلك كان العمل الذي كلف به ماركس من قبل الكنيس اليهودي متفقاً مع نفسية ماركس الشريرة وطبيعته الفاسدة .

وماركس مجرد من الرحمة الإنسانية ، فقد كان كسولاً خاملاً أنانياً لا يحب إلا نفسه ، فجفَّ قلبه من الرحمة على أبويه وأخته وزوجته وأولاده .

كان يرهق أباه بطلب المال ، مع أن واجب أبيه عليه أن يعطيه لا أن يأخذ منه ، فقد كان أبوه شيخاً فانياً في حاجة إلى عون ، ولكنه لم يرحم شيخوخة أبيه ، فكان يرهقه طلباً حتى مات .

وبعد موت أبيه اتجه إلى أمه العجوز وأخته المريضة يرهقهما سؤالاً وطلباً للمال ، وكان فرضاً عليه أن يتولى هو نفسه الإنفاق عليهما ، ولكنه ما كان يعرف الواجب ، ولم يكن يعرف الرحمة ، فقسا على والديه وأخته بما كان يرهقهم من الطلب المُلِحِّ المتكرر .

وكيف يعرف قلب ماركس الرحمة وهو خلو منها ؟ إن قلبه كان مجرداً من العاطفة الإنسانية ، ولهذا خلا تاريخه من ذكر حادثة واحدة تدل على شعور إنساني خيِّر.

وكان لا يدفع ما عليه للناس ، فقد كان يستأجر سكنه من امرأة ، ولم يدفع لها حقها من الإيجار ، فلما حجزت على أثاثه بما فيه مهد طفله وباعته ،

واحتواه هو وزوجه وطفله الرضيع وأولاده الشارع ، وكان الجو شديد المطر والبرد نقم على الأرض والسماء ، على الخلق والخالق ، وكفر بهما جميعاً ، لأن الله لم يمطره الذهب ، والناس لم يعطوه أموالهم .

وحارب أصدقاءه وتلامذته المخلصين الذين نجحوا ، ولم يكن له صديق وفيٌّ له غير إنجلز ، وما كان وفياً لشخصه ، بل سبب الوفاء « الراتب » السنوي الذي قرره له إنجلز ، ولولا هذا الراتب لعاداه .

وكل تاريخه خال من عمل إنساني أو عمل يدل على إنسانية ، وهذا أمر طبيعي ، ففاقد الشيء لا يعطيه ، فقلب ماركس خِلْوٌ من الرحمة على أقرب الأقربين ، ومن البديهيات أن يكون هذا القلب خلواً من الرحمة على الآخرين .

وأما دعوى الشيوعيين أن دليل الرحمة في قلب ماركس هو غيرته على العمال ، بدليل دعوته وحركته إلى إنصافهم فدعوى يبطلها واقع ماركس نفسه ، فهو قام بهذه الحركة والدعوة ليستغلهم ويوجههم إلى تحقيق المؤامرة اليهودية المخطط لها في الشيوعية .

ومن الحوادث الثابتة أن « ويتلنج » كان من أتباع ماركس المخلصين ، وكان عاملاً طموحاً تولى رئاسة حركة إصلاحية عمالية قام بها لخدمة الطبقة العاملة ، ونجح في حركته ، وصارت له شهرة ، فنفس ماركس على تابعه الوفي الأمين المخلص له هذه الشهرة التي أرادها ماركس لنفسه ، ونقم عليه وطرده وحاربه ، وما كان له ذنب إلا الشهرة التي جاءته من حركته .

وكان عامل آخر من أتباعه وتلامذته المخلصين ارتقى إلى أن صار محرراً في إحدى الصحف ، فنشر ذات مرة مقالاً شرح فيه إحدى قواعد مذهب أستاذه ماركس ، ولم يُرْضِ المقال صاحب الصحيفة ففصله من العمل ، فلم يغضب ماركس ، ولم يستنكر هذا الفصل ، ولم يؤيد تلميذه ، بل بذل جهده حتى حل محل تلميذه ، لا ليحمل عنه عبء الدعوة لمذهبه ، وإنما التمس « الرزق » ورغب في المال ، وتنكر لتلميذه ومذهبه على السواء ، إذ لم يكتب فيه ، بل كان يكتب ما يرضي صاحب الصحيفة وهو ضد الماركسية .

وتاريخ ماركس حافل بالتنكر للعمال الذين نجحوا كما تدل حادثة « ويتلنج » ولأصدقائه وتلامذته الأوفياء له .

هذا ماركس صاحب المذهب الأجير ، الكفور بالسماء والأرض ، والخالق والخلق ، والذي جف قلبه من الرحمة بأبويه وأولاده وزوجه ، وهم أقرب الناس إليه كافة .

ولا يمكن أن يوصف صاحب مذهب بأنه مصلح وتلك صفاته التي تناقض الإصلاح ، فما كان الفساد قط إصلاحاً ، وما كان الفكر بالإنسانية كلها عملاً إنسانياً . .

وإن الرجل الذي ضاق بالأرض والسماء فكفر بالخالق والخلق لا يمكن أن يكون صالحاً ولا مصلحاً ولا إنساناً ، لأن الإنسان بغريزته وطبيعته وفطرته ينبض قلبه بالرحمة ، وماركس جامد القلب جاف العاطفة ، ونفسه مطبوعة على الشر المحض ، فهو ليس إنساناً ، وإنما هو شيطان في زي إنسان .

ومذهب ماركس مثله في الشر والسوء ، ويغنينا واقع الشيوعية بنتائجها عن الإفاضة في المذهب ومساوئه وشروره التي لا تحصى .

وواقع الشيوعية ينبئنا عن تجرده من الإنسانية ، وخلوه من كل المقومات الإنسانية .

وكلنا نعرف أن مقومات الإنسان : الدين ، والحرية ، والكرامة ، والرحمة ، والحب ، والأسرة .

هذه هي المقومات الإنسانية في الوجود الإنساني الحق ، والشيوعية جعلت أعظم ركن من أركانها الكفر بالدين ، فلا آله عندها غير المادة ، وقد أنكرت وجود الله جل جلاله ، وأنكرت رسله ، وأنكرت الغيب كله .

والحرية التي هي سمة الإنسان بعد أن ارتقى في سلم الحضارة معدومة في الشيوعية ، بحيث سُلِبَ الإنسان في ظل الحكم الشيوعي كل ضروب الحرية :

حرية العقيدة ، وحرية العبادة ، وحرية الفكر والتعبير والرأي والنشر والمعارضة ، وحرية التملك ، وحرية التنقل ، وحرية السفر ، وحرية العمل .

ولا كرامة في الشيوعية للإنسان ، فقد أعدمت فيه الشيوعية كرامته ، وأذابت الفرد في المجموع الذي صار آلة تحركها أصابع القادة الماركسيين ، دون أن يملك المجموع أي حق .

والشيوعية مجردة من الرحمة والحب ، فما أثر في تاريخها وتاريخ إمامها ماركس وتاريخ كل أقطاب الشيوعية أي عمل دل على حب ورحمة ، وإنما المأثور نقيضها ، المأثور هو الحقد والكراهية والبغضاء والقسوة والإرهاب والطغيان والجبروت .

ومنذ قامت للشيوعية دولة منذ سنة ١٩١٧ م ثم قامت لها دول في الأرض والعالم يرى ويسمع عن فظائع الشيوعية ، فقتلاها وضحاياها بالملايين ، والمنفيون في الاتحاد السوفييتي إلى سيبريا بالملايين ، بينهم عشرات الآلاف من النساء والفتيات ، وفيهم رجال الدين البارزون وأقطاب الفكر والأدب والعلم .

وما قامت قط حركة شيوعية في أي بلد في العالم إلا على أنهار من الدم ، وعلى الضحايا البشرية بما فيها الأطفال والرُّضَّع والنساء والشيوخ ، وعلى هدم المعابد ، ونشر الكفر والإلحاد .

فالعنف والقسوة والطغيان والجبروت والإرهاب والظلم طابع الشيوعية وطبيعتها .

والأسرة لا وجود لها في الشيوعية التي نادت بتحطيم الأسرة وزوالها على زعْم أنها مصدر الأخلاق البرجوازية ، وما قامت الشيوعية ـ حسب دعواها إلا لمحوها ، لأن وجود الأسرة سبب الكنز والاحتكار والادخار والأنانية والتملك والإرث ، ومجموعة كبيرة من الأخلاق البرجوازية .

مع أن وجود الأسرة مصدر لكثير من الأخلاق الكريمة ، منها حب

الجماعة ، والرحمة ، والتعاطف ، وابتكار الحضارة ، واختراع الآلات ، والشرف ، والحصانة ، والعفة ، والمصاهرة ، والكرامة ، وقيام الشريعة التي تحفظ الحقوق ، وتضمن بقاء الجميع ، بعد أن كان البقاء للأقوى .

ويكفي للدلالة على قيمة الأسرة في الوجود الإنساني أنها سبب من أعظم أسباب وجود الرحمة التي هي من الرَّحِم الإنساني .

ولكن الشيوعية تكفر بالرحمة ، وهذا طبيعي في هذا المذهب الشيطاني الهدام الذي جحد وجود الله الموصوف من قبل الخلق بأنه إلّه الرحمة ، والموصوف في الإسلام بأنه الرحمن الرحيم .

وموجز القول : إن الشيوعية نقيض الإنسانية ، وهي العدو الأكبر للإنسانية ، وهو المذهب الذي نتفقَّد فيه الإنسانية فَنَفْقِدُها ، لأنها ـ كما قلنا ـ نقيض الإنسانية ، فكما أن الشر لا خير فيه ، فكذلك الشيوعية لا إنسانية فيها على الإطلاق .

الخاتمة

لما كان الله تبارك وتعالى قد أمر ببرِّ الوالدين ، وكذلك رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وجاء في الحديث الشريف عنه ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنْتَفَعُ به ، أو ولدٍ صالح يدعو له » فإن من حق والِدَيَّ عليَّ أن أدعوَ لهما ، لأنهما سبب وجودي وتربيتي وتعليمي .

ومع دعائي لهما أهدي ثواب الانتفاع بهذا الكتاب إلى والدي « عبد الغفور » ووالدتي وزوجتي « أم هشام » .

رحمهم الله رحمة واسعة ، وغفر لهم ، وأنزلهم الفردوس الأعلى بفضله وكرمه ، آمين .

الاثنين ١٤ جمادى الأولى هـ .

٣١ مارس ١٩٨٠ م

أحمد عبد الغفور عطار

مكة المكرمة

فهرست

٧ تمهيد

١٩ المقدمة والإهداء

٣٤ أ ـ تآمر اليهود على العالم

٤٣ ب ـ خروج العلم والعلماء على الكنيسة .

٤٧ ج ـ الانقلاب الصناعي .

٥١ د ـ سبات الشرق الاسلامي

٥٥ الشيوعية نظرية سياسية . وموازنة مقتضبة بينها وبين الإسلام .

٨٥ الشيوعية نظام اقتصادي .

٩٩ الشيوعية نظرية علمية أو فلسفة .

١٠٩ الشيوعية والإنسانية .

كتب للمؤلف

أ ـ كتب نفدت

١ ـ كتابي (مجموعات مقالات)

طبع بمطبعة أم القرى بمكة المكرمة ـ حرسها الله ـ سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٤ م).

٢ ـ محمد بن عبد الوهاب

الطبعة الأولى ، القاهرة ، سنة ١٣٦٢ هـ (١٩٤٣ م).

الطبعة الثانية ، القاهرة ، سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) .

الطبعة الثالثة ، بيروت ، سنة ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) .

٣ ـ محمد بن عبد الوهاب (كتاب جديد غير السابق) .

الطبعة الأولى ، بيروت ، ٣ ذي الحجة ١٣٩١ هـ (٨ يناير ١٩٧٢م.)

الطبعة الثانية ، بيروت ، ٢٠ ذي الحجة ١٣٩١ (٤ فبراير ١٩٧٢ م .)

الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٠ محرم ١٣٩٢ هـ (٢٤ فبراير ١٩٧٢ م.)

الطبعة الرابعة ، بيروت ، ٥ رجب ١٣٩٢ هـ (٤ أغسطس ١٩٧٢ م .)

الطبعة الخامسة ، بيروت ، سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م).

٤ ـ محمد بن عبد الوهاب

(باللغة الأردية ، ترجمة العلامة الشيخ محمد صادق خليل)

الطبعة الأولى ـ لاهور (باكستان) ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) .

٥ ـ الهوى والشباب (ديوان شعر)

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٦٥ هـ (١٩٤٧ م) .

٦ ـ الخراج والشرائع

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م).

٧ ـ أريد أن أرى الله (مجموعة قصص) .

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) .

الطبعة الثانية ـ بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) .

٨ ـ المقالات .

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) .

٩ ـ الهجرة (مسرحية)

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) .

الطبعة الثانية (ضمن مجموعة بحوث تحت عنوان الهجرة) بيروت ، ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) .

١٠ ـ صقر الجزيرة ، ٣ أجزاء .

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٦ م) .

الطبعة الثانية ـ جدة ، سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٥٦ م) .

الطبعة الثالثة (ثلاثة أجزاء في مجلد واحد) جدة ، سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) .

١١ ـ البيان (نقد أدبي)

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٦٩ هـ (١٩٤٩ م) .

١٢ ـ الزنابق الحمر (مسرحية لطاغور، مترجمة عن البنغالية)

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٧١ هـ (١٩٥١ م) .

١٣ ـ المقدمة (دراسة لمعجم صحاح الامام الجوهري)

الطبعة الأولى (كتبت مقدمة لمعجم « تهذيب الصحاح » للزنجاني)

القاهرة ، سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م) .

الطبعة الثانية ـ القاهرة ، سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م) .

١٤ ـ قطرة من يراع

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) .

١٥ ـ الصحاح ومدارس المعجمات العربية

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦ م) .

الطبعة الثانية (صدرت مع معجم الصحاح للجوهري تحت عنوان :

« مقدمة الصحاح » (في جزء مستقل) القاهرة ، سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) .

الطبعة الثالثة ـ بيروت ، سنة ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م) .

الطبعة الرابعة ـ مع معجم الصحاح للجوهري ، الطبعة الثانية ، بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

١٦ ـ مقصورة ابن دريد (بحث تاريخي أدبي)

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م).

١٧ ـ الاسلام والشيوعية

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٦ م).

الطبعة الثانية (مزيدة ومنقحة) بيروت ، سنة ١٣٩١ هـ (١٩٧٢ م) .

١٨ ـ حرب الأكاذيب

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م).

الطبعة الثانية ، نشرت بجريدة « عكاظ » الطائف ، سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م

الطبعة الثالثة ، نشرت في الطبعة الثانية من كتاب « الاسلام والشيوعية » ، بيروت ، سنة ١٣٩١ هـ (١٩٧٢ م).

١٩ ـ الفصحى والعامية

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م).

٢٠ ـ عشرون يوماً في الصين الوطنية

الطبعة الأولى ـ تايبيه (الصين الوطنية) سنة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م).

٢١ ـ الشريعة لا القانون

الطبعة الأولى ـ جدة ، سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م).

٢٢ ـ الاسلام طريقنا الى الحياة

الطبعة الأولى ـ جدة ، سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م).

٢٣ ـ آراء في اللغة

الطبعة الأولى ـ جدة، سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤م).

٢٤ ـ كلام في الأدب

الطبعة الأولى ـ جدة ، سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م).

٢٥ ـ المفتش (مسرحية لنقولا جوجول)

الطبعة الأولى ـ دمشق ، سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م).

الطبعة الثانية ـ بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٢٦ ـ الزحف على لغة القرآن

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٦٦ م).

٢٧ ـ الاسلام خاتم الأديان

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م).

٢٨ ـ إنسانية الاسلام

الطبعة الأولى ، بيروت ، سنة ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م).

٢٩ ـ اليهودية والصهيونية

الطبعة الأولى ، بيروت ، سنة ١٣٩١ هـ (١٩٧٢ م).

٣٠ ـ صقر الجزيرة ٧ أجزاء (وهو غير الكتاب السابق).

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م).

٣١ ـ ابن سعود وقضية فلسطين

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م).

٣٢ ـ الشيوعية وليدة الصهيونية

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م).

٣٣ ـ الماسونية

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م).

٣٤ ـ عروبة فلسطين والقدس أصيلة منذ عشرات الآلاف من السنين . والهيكل لم يكن مقدساً عند سليمان واليهود .

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م).

٣٥ ـ حجة النبي ﷺ

الطبعة الأولى ـ دمشق ، سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م).

٣٦ ـ مؤامرة الصهيونية على العالم

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م).

الطبعة الثانية (خاصة بوزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية / بيروت . ١٣٩١ هـ (١٩٧٢ م).

الطبعة الثالثة ، بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٣٧ - بروتوكولات صهيون (مترجم)

الطبعة الأولى ، بيروت ، سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م).

الطبعة الثانية ، بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

ب - كتب محققة نفدت

٣٨ - تهذيب الصحاح (معجم لغوي، تأليف الامام الزنجاني) ٣ أجزاء.

بالاشتراك مع الأستاذ عبد السلام هارون

الطبعة الأولى - القاهرة ، سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م).

٣٩ - مقدمة تهذيب اللغة ، للإمام الأزهري

الطبعة الأولى - القاهرة ، سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م).

٤٠ - ليس في كلام العرب ، للإمام ابن خالويه

الطبعة الأولى - القاهرة ، سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م).

٤١ - آداب المتعلمين ورسائل أخرى في التربية الاسلامية ، لابن خلدون وغيره .

الطبعة الأولى - القاهرة ، سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م).

الطبعة الثانية - بيروت ، سنة ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م).

٤٢ - الصحاح ، للامام الجوهري ٧ أجزاء (منها المقدمة)

الطبعة الأولى - القاهرة سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م).

الطبعة الثانية - بيروت سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

ج - كتب مترجمة للمؤلف ، طبعت حديثاً

٤٣ - محمد بن عبد الوهاب ، باللغة الانكليزية .

ترجمة الدكتور راشد البراوي

الطبعة الأولى - مكة المكرمة ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٤٤ - محمد بن عبد الوهاب ، باللغة الأردية

ترجمة الشيخ محمد خليل صادق ، الطبعة الثانية - مكة المكرمة ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٤٥ - إنسانية الاسلام ، باللغة الانكليزية

الطبعة الأولى - بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

د ـ كتب صدرت حديثاً

١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م

٤٦ ـ الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم

الطبعة الأولى ، بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م).

الطبعة الثانية ، بيروت ، سنة ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م).

٤٧ ـ أحكام الحج والعمرة من حجة النبي وعمراته

الطبعة الأولى ، بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م).

٤٨ ـ الحجاب والسفور

الطبعة الأولى ، بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٤٩ ـ وفاء الفقه الاسلامي بحاجات هذا العصر وكل عصر.

الطبعة الأولى ، بيروت، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٥٠ ـ وفاء اللغة العربية بحاجات هذا العصر وكل عصر.

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٥١ ـ دفاع عن الفصحى

الطبعة الأولى ـ بيروت، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩م)

٥٢ ـ الهجرة

الطبعة الأولى ـ بيروت، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٥٣ ـ الهجرة (مسرحية)

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٥٤ ـ جحا يستقبل نفسه

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٥٥ ـ ويلك آمن (نقد لبعض آراء الشيخ ناصر الدين الألباني)

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٥٦ ـ شرح مقصورة ابن دريد، لابن هشام اللخمي. (تحقيق)

الطبعة الأولى بيروت سنة ١٤٠٠ هـ. (١٩٨٠ م).

٥٧ ـ الشيوعية والإسلام

الطبعة الثانية ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ . (١٩٨٠ م).

٥٨ ـ اليهودية والصهيونية

الطبعة الثانية ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ . (١٩٨٠ م).

٥٩ ـ الشيوعية خلاصة كل ضروب الكفر والموبقات والشرور والعاهات

الطبعة الأولى ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ. (١٩٨٠ م).

٦٠ ـ الاسلام دين خاص أم عام

الطبعة الأولى ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ . (١٩٨٠ م).

٦١ ـ انحسار تطبيق الشريعة في أقطار العروبة والاسلام

الطبعة الأولى ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ . (١٩٨٠ م).

٦٢ ـ الجوهري

الطبعة الأولى ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ . (١٩٨٠ م).

٦٣ ـ أصرح الأديان للبشرية عقيدة وشريعة

الطبعة الأولى ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ .

٦٤ ـ عروبة فلسطين والقدس

الطبعة الثانية ـ مزيدة ومحققة ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ . (١٩٨٠ م).

٦٥ ـ انسانية الاسلام

طبعة ثانية ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ . (١٩٨٠ م.)

٦٦ ـ ليس في كلام العرب

الطبعة الثانية مزيدة ومحققة ومفهرسة ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ. (١٩٨٠ م.)

٦٧ ـ الديانات والعقائد في مختلف العصور

أربعة أجزاء في أربعة مجلدات

الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٠ هـ . (١٩٨٠ م.)

هـ ـ كتب أعيد طبعها

١ ـ حجة النبي ﷺ

الطبعة الثانية ـ دمشق ، سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م).

٢ ـ صقر الجزيرة ٧ أجزاء.

الطبعة الثانية ـ بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م).

٣ ـ محمد بن عبد الوهاب

الطبعة الخامسة ، بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) .

الطبعة السادسة ، بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) .

الطبعة السابعة ، بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) .

و ـ كتب معدَّة للطبع

١ ـ المكتبات

٢ ـ فيصل

٣ ـ مئة كلمة

٤ ـ لا أؤمن بالاشتراكية لأني أؤمن بالاسلام

٥ ـ مع الكتب والمؤلفين

٦ ـ الأسرة

٧ ـ نقد كتاب « كشف الظنون »

٨ ـ مذكرات لارا

٩ ـ قال بيدبا

١٠ ـ خمس دقائق قبل الفطور

١١ ـ وراء القضبان

١٢ ـ ورود من كلام

١٣ ـ العقاد

١٤ ـ مسلمة في سيبيريا

١٥ ـ مع الملوك والرؤساء

١٦ ـ الأدب الضاحك

١٧ ـ الرحلات

١٨ ـ عائشة أم المؤمنين

١٩ ـ في اللغة

ز ـ كتب محققة للطبع

٢٠ ـ الأزمنة ، لقطرب .

٢١ ـ ما اتفق لفظه واختلف معناه ، لأبي العميثل .

٢٢ ـ كشف الظنون ، لحاجي خليفة .

٢٣ ـ مجموعة المعاني (مختارات شعرية) طبعة الجوائب .